مكتبتنا العربية

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

— ١ —

لكل زمن مشاكله التى تتنوع وتتعدد بحسب البلدان والأمم المختلفة ، وبحسب الأزمان أيضاً ، وهذه المشاكل أصناف وضروب ؛ فمنها ما يتعلق بالناحية السياسية لبيان أى النظم أصلح للحكم ؛ ومنها ما يتعلق بالناحية الاجتماعية وما تثيره من مسائل الضمير والمقاييس الخلقية والعادات والتقاليد ونحوها ؛ ومنها ما يرجع إلى غير هذه أو تلك من النواحى ، ولكل دولة أو أمة من الناس طرائقها فى حل مشاكلها الخاصة بها ، وقد تستوحى فى الحلول التى تراها غيرها من الأمم . إذ لا تستغنى أمة عن الإفادة من تجاريب غيرها ؛ سواء فى مسائل العلم والفكر ، أو المسائل الأخرى التى تزخر بها الحياة .

إلا أنه ، هناك طائفة أخرى من المشاكل لها طابع خاص يجعلها تعلو على الزمان والمكان ، فهى مشاكل لا تخص أمة دون أخرى ، ولا عصراً دون عصر ؛ هى مشاكل أحسها الناس جميعاً فى كل زمن على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم وديانا تهم ؛ ومن ثم ، نجد التاريخ قد عنى عناية خاصة بتدوين ما كان من حلول لهذا الضرب من المشاكل المختلفة ، وذلك عسى أن يفيد الحاضر من جهود الغابر ، ومفكرو اليوم من تفكير رجال الأمس ، ومن هذه المشاكل التى لها هذا الطابع ، أى المشاكل العالمية ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل وما لها من حقوق وواجبات .

لهذا لم يكن عجيباً أن يتناول المفكرون ، وبخاصة رجال الفلسفة والاجتماع ، فى كل زمن وفى كل أمة ، هذه النواحى وما تثيره من مسائل ومشاكل تتطلب الحل الذى يكون أدنى للحق وإلى طبائع الأشياء وحقائق الأمور ؛ الحل الذى يقوم به العالم وتصلح الحياة إن كان إلى ذلك من سبيل .

مكتبتنا العربية

وابن سينا فيلسوف خالد من فلاسفة المسلمين ، ولم تمنعه الفلسفة من أن يكون رجل سياسة ورجل دولة ؛ فكان له من هذا ما يكون لأمثاله من حظوة ومتعة ونعيم أحيانا ، كما كان له حظه أحيانا أخرى من المتاعب والاضطهاد . ذلك بأنه لم ير لنفسه أن يعيش فى عزلة عن الحياة العامة كما فعل سلفه العظيم الفارابى ، بل كان رجلا واقعيا يأخذ من الحياة ويعطى ، ولهذا نجده أسهم فى الحياة العامة بنصيب كبير .

وهذه النزعة العملية جعلته لا يتقيد فى تفكيره بمذهب خاص من مذاهب من سبقوه فى القديم والحديث ، بل - بعد أن وعى واستوعب ما سبقه من فلسفات - فكر لنفسه ، وأخذ يختار من آراء سابقيه ما يوافق ميوله وتفكيره ، لا يبالى أين يجد ذلك أو رأى الناس فيه . ومن أجل هذا ، نجد فى تآليفه سمات وخصائص من المذاهب المختلفة التى عرفها تاريخ الفكر والفلسفة ، وإن كانت عبقريته وقوة فكره قد غطيا هذه السمات حتى لا يكاد القارىء غير المتخصص يحس بها ، ومن ثم يعتقد بأن كل تفكير فيلسوفنا طريف لم يلتمس منه شيئاً لدى غيره من أسلافه المسلمين وغير المسلمين فى الشرق أو الغرب .

وقد ساعد على هذا ، ما يلمسه القارىء فى كتابات الشيخ الرئيس من قوة الشخصية والنزعة إلى الاستقلال فى الرأى والتفكير ، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول : حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء ، فقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا .

وابن سينا ، بعد هذا ، شغل الباحثين من بعده ؛ هؤلاء الباحثون الذين عكفوا على كتاباته يُحصونها ، وعلى آرائه يدرسونها ويصدرون الأحكام لها أو عليها ، بعد مقارنتها بآراء غيره من سابقيه ومعاصريه واللاحقين به ، وكانوا فى هذا التقدير والوزن لآرائه ، والحكم لها أو عليها ، بين المقصر فى حقه والغالى فى تقديره .

على أن هذه الدراسات ، أو على الأقل الجانب الأكبر منها ، توجهت إليه وإلى تراثه الفكرى كطبيب خلا ذكره فى عالم الطب بقانونه ، وكفيلسوف منطق وطبيعى وإلهى له فى كل هذه النواحى آراء لها قدرها وخطرها . ومن الذين درسوه فى عمق وإطالة فى هذه النواحى الأخيرة ، ولكن فى تجن أحيانا ، حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى . وليس من همنا الآن الحديث عن هذه الدراسة القوية

مكتبتنا العربية

التى نجدها فى كتاب [تهافت الفلاسفة] ، والتى نجد التعقيب القادر عليها فى كتاب [تهافت التهافت] لفيلسوف الأندلس الأشهر أبو الوليد بن راشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ .

والذى نريد أن نشير إليه الآن هنا ، هو أن جمهرة الباحثين أغفلوا تماما أو كادوا ، دراسة الشيخ الرئيس كفيلسوف اجتماعى له فى هذه الناحية آراء لم تخلق جدتها مع تتابع القرون ، ومن ثم تضعه بحق فى مصاف المفكرين الاجتماعيين المحدثين فى أكثر من ناحية من النواحى الاجتماعية ، هذه النواحى التى تجعل موضوع دراساتها الفرد والمجتمع من مختلف الزوايا .

هذه الآراء رأيتها جديرة بالحديث عنها ونشرها ، لعل بعض الذين يعنون بالمشاكل الاجتماعية يفيدون منها ، ولعلها تلفتنا إلى وجوب دراسة مفكرينا والاعتزاز بهم والإفادة منهم ، بدلا من إهمال ماضينا وتراثنا الفكرى والتهافت على أوربا وما عند أوربا تهافتاً ينال من كرامتنا ، ويظهرنا عالة على غيرنا : كأننا أمة لا ماضى لها تعتز به ، ولا تقاليد تفخر بها ! إنه يجب أن ننتفع بهذا التراث المجيد فى بناء حاضرنا ومستقبلنا : فلقد كنا نألم أشد الألم عند ما كان إخواننا الطلاب الفرنسيون بباريس يلاحظون علينا ، معشر الشرقيين ، أننا نصطنع الحياة الغربية فى جميع مناحى الحياة العامة تقريباً ثم تضيق صدورنا بأن يكون لصانعى هذه الحضارة وسدنتها سيادة أو نفوذ فى الشرق !

لماذا لا نستلهم هذا التراث الإسلامى المجيد ، الذى أفاد الغربيون أنفسهم كثيراً منه ، فى التشريع المدنى والجنائى والتجارى ؟ ولماذا لا نستلهمه أيضاً فى السياسة الاقتصادية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كذلك فى ناحية سياسة الحكم ونظمه ؟ وهذا مع الإفادة من الحضارة الغربية والتفكير الغربى فيما نجد من الخير أخذه عنهما . لعل بعض السبب فى هذا يرجع إلى « تنوية التعليم » عندنا والنظم التى يقوم عليها ، والتى كان منها أن صيغت عقول أبناء الأمة على طرائق مختلفة . وكان من ذلك أن القائمين على هذا التراث الإسلامى ليس إليهم من أمور الحكم شىء ، وأن الذين إليهم الحكم لا يعرفون شيئاً ذا غناء من هذا التراث ! ولعل الله يرزق مصر بمصلح قوى قادر ، لا تنقصه الإرادة الطيبة الحازمة ولا الكفاية والشجاعة ، فيغير من هذا الحال ؛ وبذلك نصل جميعاً إلى معرفة هذا التراث القيم

مكتبتنا العربية

وتقديره حق قدره والإفادة منه : وتكون النتيجة الطبيعية أن تنهض مصر ومعها سائر البلاد الإسلامية على أسس من روح الإسلام وعبقريته ومبادئه وأصوله .

هذا وأرجو ألا يثقل هذا الحديث الذى نحن بصدد التقديم له ، وألا يظن أنه حديث فلسفى ممل ، ما دام محوره أحد الفلاسفة الكبار ! فقد تعودنا فى هذا الشرق أن نعد الفلسفة أمراً ثقيلا ، وأن نرى فيها تفكيراً يجافى الدين ، وكان ذلك ميراثا ثقيلا عن الماضى : على أن الحال الآن ، بحمد الله ، غير الحال فى ذلكم الزمن ، فقد أصبحنا نحاول أن نجد فى الفلسفة عونا على حل ما يعترينا من مشاكل ومعضلات ، ولا عجب فى هذا ، وكلا الفلسفة والدين يعملان على فهم العالم ومبدئه ومصيره ، ويعنيان بتبصر الفرد والمجتمع بما فيه خيره وسعادته ، فى حاضره ومستقبله فى دنياه وآخرته ، وإن كان لكل من الفلسفة والدين طرقه الخاصة التى قد تتقارب حينا ، وتتباعد حيناً آخر .

على أن للقارىء أن يطمئن من ناحية أخرى ، فإنى لن أعرض من آراء الشيخ الرئيس إلا للقليل الذى يتعرض بصفة خاصة لبعض مشكلات العصر الحاضر : وأعنى بذلك مشكلة العمل والبطالة ، أو بعبارة أخرى مشكلة الضمان الاجتماعى : ثم مشكلة المرأة من ناحية مساواتها أو عدم مساواتها للرجل فى الطبيعة والحقوق والواجبات ، وناحية الزواج والطلاق وكيف يكون ولمن يكون .

* * *

يمهد ابن سينا لحديثه عن هاتين المشكلتين ، ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات ، بأنه لا يمكن أن يحيا حياة طيبة لو انفرد وحده بالمعيشة . ذلك ، بأنه لا بد من أن يكون المرء مكفيا بآخر من نوعه الإنسانى ، كل منهم يساعد الآخر ويخدمه فى ناحية من نواحى الحياة . ومن أجل هذا كان الإنسان مضطرا الى بناء المدن وإنشاء المجتمعات ، حتى يكون البعض للبعض وإن لم يشعروا خدما ، ويشارك ابن سينا فى هذه الملاحظة كل الباحثين الاجتماعيين فى قديم الزمن وحديثه .

ويخلص من هذا ، بأن يستنتج أنه لا بد إذاً فى وجود الإنسان وبقائه وحياته حياة طيبة من مشاركة فى الحياة ، ومعاملة الناس بعضهم مع بعض ، والمعاملة تقتضى أساسا قويا من شريعة صحيحة وعدالة حقة ، وهذه الشريعة لا بد لها من شارع يجىء

مكتبتنا العربية

بها ، كما لابد للعدالة من عادل يقوم بها ويجريها كما يجب . وهذا كله يستلزم أن يرسل الله لخلقه رسلا منهم يبلغون عنه شريعته ، ويقومون بين الناس بالعدالة .

وهـــذا النبي والرسول عليه أن يبذل غاية وسعه لتأكيد سعادة الناس دنيا وأخرى ، وذلك بإرشادهم الى ما من شأنه تنزيه النفس عن الخبيث من الطباع والسيء من القول ، والرديء من العمل ، وهذا كله لا يحصل إلا بأخلاق تحصل ، وملكات تكتسب بأفعال طيبة من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ونزواته وهواه ، وتديم تذكرها للمعدن الطيب الشريف الذى لها ، ويجب أن تحن له دائما .

وبعد هذا التمهيد العام ، يأخذ شيخ الفلاسفة فى الكلام على أولى المشاكل التى أراد الكلام عليها ؟

« الحديث موصول »

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

من كلام ابن عباس رضى الله عنه

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :ـــ

كتب إلى علىّ بن أبى طالب كرم وجه :ـــ

أما بعد ـ فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من أمر دينك فلا تكن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همك ما بعد الموت .

مكتبتنا العربية

أبو حامد بهاء الدين السبكى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى

مدير المساجد بوزارة الأوقاف

بعد أن ترجمنا فى المقالتين السابقتين للامام تقى الدين السبكى ، ثم لابنه الشيخ الجليل تاج الدين ، وتحدثنا بما كان لهما من فضل وما خلّفا فى أيدى العلماء والدارسين من مؤلفات لم تزل منهل الواردين ، ومقصد المحصلين ، مما كتب لهما على وجه الأيام الخلود ، وسجل باقى ذكرهما فى العالمين ، وجعل لهما لسان صدق فى الآخرين ، اليوم نترجم لثالث الأعلام المبرزين ممن نبغ من هذه الدوحة المباركة ، وتألق نجمه من أسرة السبكيين ، وهو أحمد بن على بن عبد الكافى بن على بن تمام السبكى ، المكنى بأبى حامد الملقب بهاء الدين ، فهو ابن تقى الدين السبكى وأخو تاج الدين .

يختلف أصحاب التراجم فى سنة مولده اختلافا يسيرا ، فمنهم من يؤرخ مولده بسنة تسع عشرة وسبعمائة هجرية ، ومنهم من يجعل تاريخ مولده سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وهم متفقون على تاريخ وفاته بسنة ثلاث وسبعين وسبعمائة هجرية ، وينفرد كتاب شذرات الذهب بالنص على أن سنه حين وفاته كانت ست وخمسين سنة ، فلعل هذا النص يبيح لنا أن نرجح ، مع ملاحظة الاتفاق على تاريخ وفاته ، أن ميلاده كان سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وتنوه كتب التراجم بنبوغه وتبريزه فى العلم وهو صغير ، ونحن نرى ذلك معقولا وسائغاً مقبولا ، إذ هو قد نشأ فى كنف أبيه العالم الجليل ، فلا شك أنه قد وجد فى بيته البيئة العلمية الساهرة على تقويم صباه وتسديد خطاه فى سبل التربية والتثقيف ، وكان له فى أبيه الأستاذ الأول وحسبك به مربياً حانياً وأستاذاً عالما ، فلما اشتد ساعد أبى حامد وغشى حلقات الدرس أضاف إلى ما تلقاه عن أبيه ما يقتبسه من علماء عصره ، ويتلقاه عن أئمة زمانه فأخذ عن الأصبهانى وابن التمام وأبى حيان ، ويظهر أن صحبته لشيخه أبى حيان قد طالت وحسنت ، ويدلك على ذلك ما نظم فى مدح شيخه من شعر ، منه هذان البيتان :

فداكم فؤاد حان للبعد فقده ... وصب قضى وجدا وما حال عهده

مكتبتنا العربية

وقلب جريح بالغـــرام متيم وطرف قريح طال فى الليل سهـده

وقد كان شيخه يبادله المودة والتقدير لكريم خلاله والرضا عن سعيه فى الطلب ودأبه على تحصيل العلم . ومن أبيات قالها فيه شيخه تتبين أنه كان يراه فذا فى أقرانه نابغة بين إخوانه ، وهى :

أبو حامد حتم على الناس حمـــده لما حاز من علم به بان رشده
غذى علوما لم يزل منـــذ نشئه يلوح على أفق المعـــارف سعده
ذكى كأن قد جاحم النار ذهنه ذكاء ومن شمس الظهيرة وقده
ومن حاز فى سن البلوغ فضائلا زمان اغتذى بالعى والجهل ضده

وأنت ترى أن شيخه يسجل هنا ما قد بلغ تلميذه من فضل وتقدم وما جاوز سن البلوغ . وكما أخذ اللسان العربى عن أبى حيان كذلك قرأ القرآن على الشيخ التقى الصايغ ، وبذلك توفرت له الأسباب التى مكنته من إتقان علومه وإحكام ثقافته . فلم يبلغ العشرين إلا وهو عالم يشار إليه بالبنان ، وأستاذ معدود فى المحققين حتى ذكر فى ترجمته أنه أفتى ودرّس وله عشرون سنة وولى وظائف أبيه بالقاهرة وله إحدى وعشرون سنة لما تحول والده إلى قضاء الشام . وفى نبوغه وفضله يقول ابن حبيب : إمام علم زاخر اليم مقرون بالوفاء الجم ، وفضله مبذول لمن قصد وأم . وقلم كم باب عدل فتح ، وكم شمل معروف منح . ولا يحدثك مثل أبيه عن تفوقه وسعة علمه وهو فى شهادته له شاهد عدل وحكم فصل . لأنه يفضله على نفسه ، فالمحاباة إذاً مستبعدة والحيف مأمون . ذكروا أن أباه قد حضر درسه فحمده وقال فيه:

دروس أحمد خير من دروس على وذاك عنـــد على غاية الأمل

وعلى هو أبوه شيخ الإسلام الجليل .

وقد شهد له أبوه بالبراعة والسبق كرة أخرى لعلها أثبت وأقوى : ذكروا أنه أرسل من مصر بحثاً يتعلق بالعربية إلى والده حين كان بالشام فأجابه عنه . فرد جواب أبيه بكراسة ، فلما وقف أبوه عليها كتب إليه كتابا صدره بقوله : وقفت على جوابك أيها الولد الذى هو أعظم من الوالد . : ومما يؤيد ثناء أبيه عليه وتقريظه له كثرة المناصب العلمية العالية التى تولاها وتقلب فيها . فقد نهض فوق ولايته لوظائف أبيه المذكورة آنفاً بتدريس مذهب الشافعى بالمشهد الشافعى وبجامع الحاكم والشيخونية أول مابنيت ، كما ولى قضاء الشام سنة نيابة عن أخيه ليحفظها له

مكتبتنا العربية

ثم عهد إليه بقضاء مدينة العسكر والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الطولونى . وقد عرف شيخنا أبو حامد أن العلم أحد شيئين يتألف منهما السلوك الكامل ، وأنه لابد للعلم أن يستتم وجوده ويستكمل جماله بالخلق الفاضل ، لذلك جمل هذا الإمام الكريم علمه بالتقوى والورع والدين . قال مترجموه : كان كثير التمامة والعبادة ، معروفاً ، بالتقوى وزان نبوغه بالورع والوفاء الجم ، كثير الحج والمجاورة لبيت الله . ومما يشهد بقوة خلقه ماروووا عنه حين ولى الخطابة بالجامع الطولونى ، أنه كان شديداً فى وعظه حتى غضب من شدته بعض الأمراء ، فأمر أن يستنيب عنه من يخطب بحضوره ، فكان لا يخطب إلا إذا غاب ذلك الأمير .

أما ما بقى لنا من غزير علمه وبارع أدبه وفائق تأليفه فيتمثل فى كتابين قيمين أحدهما شرح مطول على مختصر ابن الحاجب يعنى به الأصوليون ويتدارسه العالمون . والآخر «عروس الأفراح» كتاب البلاغة النفيس الذى مابرح علماء البلاغة منذ تأليفه اليه يرجعون وعليه يعلقون ومنه يقتبسون . ولعلك تذكر هنا ما أسلفنا عليك فى صدر هذه الترجمة من صحبة أبى حامد لشيخه أبى حيان وتوثق العلاقة بينهما حتى نظم الشعر فى مدح أستاذه ونظم شيخه الشعر فى الثناء عليه والاعجاب به فقد كان لهذه الصحبة أثرها القوى المثمر فى إتقان شيخنا أبى حامد للغة العربية وعلومها ونبوغه فى ذلك .

وقد تحدث المترجمون فذكروا أنه كان فائق النظم فى الشعر رائق العبارة فى التأليف والمحاضرة ، وقد عرفت أن أباه حين قرأ بحثه المتعلق بالعربية كتب اليه معترفا بتفوقه عليه وسبقه له فى ذلك ، فمن حقنا إذاً أن نقرر أن العلوم التى كان أبو حامد أشد تبريزاً فيها وأبعد صيتاً هى اللغة العربية وعلومها ، وبذلك يشهد عروس الأفراح وهو شرح ممتع لتلخيص المفتاح دل به على سعة اطلاعه وغوصه فى العلوم العربية ، ولولا ما فيه من استطراد ممل وحشوه بمسائل خارجة من الفن لكان خير شروح التلخيص لنصاعة عبارته وسهولة أساليبه وذوقه الأدبى . وحسبه هذا الكتاب أثراً باقياً ونفعاً جارياً يضاعف حسناته ويستمطر على مثواه رضوان الله ورحماته ويذكر الدارسين بفضله ويدعوهم إلى اقتفاء أثره فى نفع المسلمين وخدمة العلم والمتعلمين .

مكتبتنا العربية

الفقه السياسي عند المسلمين

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فياض
أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

— ٢ —

تحدثت فى الكلمة السالفة عن بعض إنتاج المسلمين فى الفقه السياسى ، ورأينا التراث الضخم الذى خلفوه فى البحوث السياسية المستقلة عن علوم الفقه والأصول والكلام ، والآن نتحدث عن اتجاه هذه البحوث على وجه عام .

فى عصر العباسيين قامت حركة التأليف والترجمة والتدوين على قدم وساق ، وجميع ما خلفه المسلمون الأول ، يرجع تقريباً إلى هذا العصر ، أو إلى أصول وضعت فى هذا العصر ، وكان العباسيون يهتمون قبل كل شىء بتركيز دعائم ملكهم ، لهذا كانت حرية الرأى - على مبلغ احترامها وعظم مكانتها فى الإسلام - مستظلة إلى حد ما بلواء العباسيين ، وقد كان للعباسيين خصوم من العرب يمثلهم بنو أمية الذين استطاعوا ابتناء ملك واسع ومجد عريض فى الأندلس ، يماثل - إن لم يفق - ملك بنى عباس ومجدهم فى الشرق ، وخصوم من غير العرب يتزعمهم ويثيرهم أبناء عمومتهم العلويون ، وفى ظلال الحكم العباسى تنبهت القوميات الغافية ، وتحركت الأطماع فى نفوس كثيرين من أبناء الأمجاد الأول التى غلبها الإسلام ، ولهذا رأى العباسيون من حتمهم أن يشرفوا على توجيه البحوث ومراقبة « الإنتاج » الفكرى فى ملكهم ، ولعل هذا هو السر فى اتجاه البحوث السياسية فى كتب الأحكام السلطانية الاتجاه الواقعى ، بدليل أنها كانت استجابة لرغبة حاكم أو هدية إلى حاكم ، وبعبارة أخرى : إن كتب الأحكام السلطانية ، قصد بها تقرير الأوضاع التى تعورفت سياسيا بين المسلمين وتنزيلها على مبادىء الإسلام ، أو تنزيل مبادىء الإسلام عليها بتأويلها أو تلوينها بحيث لا تختلف مع العرف السياسى - تقريراً يتمشى مع وجهة نظر العباسيين وظروفهم الخاصة ، قد يكون هذا وقد يكون غيره أيضاً .

فعلماء الإسلام الأول وجدوا أنفسهم فى أمة حية تعيش فى دولة قائمة لها

مكتبتنا العربية

دستورها وأحكامها وتعاليمها ، فى شتى نواحى الحياة : فى الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأمور الحكم والقيادة ، فى كل شىء ، فلم يشغلوا أنفسهم ببحوث فرضية سياسية ، عن أصل الدولة ، وكيفية قيامها ، ومدى الارتباط بين سيادة الحاكم وحقوق المحكومين ، لأنهم وجدوا دولتهم قائمة بالفعل على أساس من القرآن والدعوة إلى مبادئه ، التى تجعل من الحاكم خادماً لا سيداً ـ وإن كانت له سيادة فعلية معترف بها ـ وعلى هذا لم يتحدث علماء الإسلام الأولون عن أصل الدولة ، وهل هو « زعامة العائلة » اعتماداً على طبيعة الإنسان الاجتماعية ، أو هو « الزعامة الدينية » التى قام عليها ملك بنى إسرائيل القديم ، لأن ملوكهم فى نظرهم خلفاء لأنبيائهم ، أو هو « حق ملكى مقدس » بمعنى أن الله اختار شخصاً وملكه على بقعة من أرضه ، وسلمه السلطة مباشرة فهو مسئول أمام الله وحده مباشرة لا أمام الشعب ، أو هو حق الفتح والغلبة ، يرتفع عن طريقه شخص أو عائلة إلى السيادة فى بقعة ما من الأرض ، أو هو نتيجة لخطيئة آدم الكبرى أوجدها الله لتكبح جماح الأفراد ، وتحد من حرياتهم عقاباً لهم على هذه الخطيئة ، كما يرى ذلك آباء المسيحية الأول ؛ أم أن الأصل فيها هو قيام تعاقد بين الأفراد وحكامهم نتيجة لتصادم حريات الأفراد الأحرار المتساويين من كل وجه ؟ واتفاقهم على الخروج من حالة الطبيعة إلى حالة جديدة يتنازل فيها كل منهم عن شىء من حقوقه وحرياته فكانت الدولة ، وهل هذا التعاقد يقيم ملكية مطلقة مستبدة ، أو ملكية دستورية مقيدة ، او يعطى للشعب السيادة المطلقة على حكامه ؟ كل هذا لم يشغل المسلمون أنفسهم به فى العصر الأول لتدوين الفكر الإسلامى ، لأن البحث عن حالة ما قبل الدولة يقوم على أسس خيالية يفترضها الباحثون لتبرير نظرية خاصة ، وليس بحثاً يقوم على حقائق علمية معترف بها عند العلماء ، وهذا النوع من البحث الفرضى ، إن جاز فى بيئة علمية لا يحكمها دستور قائم ، فإنه لا محل له ، أو هو مضيعة للوقت فى بيئة علمية يحكمها دستور قائم « القرآن والسنة » تناول كل شئون الحياة الإنسانية ، وحدد للأفراد وللحكام الحقوق والواجبات ، بما لا يدع مجالا لطغيان هؤلاء أو أولئك ـ عند العقلاء ـ وما كان لهم أن يفترضوا فروضاً ، وعندهم حقائق مقررة تصرفهم عن مثل هذه الفروض ، ومن هذه الحقائق الثابتة عندهم : الملك لله الواحد القهار ، الحكم لله أحكم الحاكمين ،

مكتبتنا العربية

والأرض لله خالقها وخالق الكون ، والله هو المشرع وعلى هدى تشريعه قامت دولة المسلمين . وإذن فليتجه البحث إلى التشريع الذى أقام الدولة ، لا إلى حالة فطرية سبقت تحضُّر الإنسان ، وهو لا يعلم بالضبط متى تحضَّر ! !

ولكن لا بد لنا من الحديث عن أصل الدولة فى نظر الإسلام . ولدينا من النصوص الصحيحة ما يساعدنا على تجلية وجهة نظر الإسلام فى أصل الدولة ، ونحن نحاول قدر طاقتنا بيان ذلك فيما يلى :

أولا — الإسلام (القرآن) دستور عام خالد لا يتبدل ولا يتغير ، وهو هداية ربانية إلى أمثل منهج يحقق للإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة ، فى شئون الدين والعبادة ، وفى تدبير مصالحه الدنيوية « ان هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم » فهو يهدى الإنسان إلى المنهج الذى اختاره الخالق سبحانه لعبادته ، ويهديه إلى خير الوسائل التى تضمن له الحصول على ما قرره الله له من حقوق ، والقيام بما ألزمه به من تكاليف ، ومقررات القرآن الكريم ، وتوضيحات السنة الصحيحة لمبادئه ، مقررات ثابتة لا يجوز العدول عنها لهوى النفس ، وتبدل الأوضاع .

ثانياً — حرض الإسلام العقل على التحرر من قيود الجمود التى فرضتها الوراثة عن الجدود . وكان تحريضه بالغاً عند ما فرض له تعدد الآلهة ، ورتب ما رتب على التعدد من فساد ، فتحرر العقل وتوصل متمتعا إلى ما دعا الإسلام إليه من وحدانية الخالق وتفرده وحده بالخلق والإيجاد ، فاستبان للناس ـ أن الخالق واحد وهو المالك لكل ما خلق ، فالكون ملك لله . والناس عبيد لله ، سواء فى ذلك آحاد الآدميين وخاصة الرسل والأنبياء، وبهذا المبدأ السامى ألغى الشرك فى العبادة (الشرك الدينى) وألغيت الفروق بين الناس (الشرك الاجتماعى) . فكما أنه ليس من العقل عبادة غير الله مما خلق ، فليس كذلك من العقل التفرقة بين الناس الأحرار المتساويين فى الخلق والعبودية للخالق ، بدافع من جنس أو لون ، أو بدافع من حسب ونسب ، أو غنى وفقر ، فكل هذه الفروق لا اعتبار لها عند وزن القيم ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ويقول الرسول الكريم (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، الناس لآدم وآدم من تراب)

مكتبتنا العربية

وقد جعل الإسلام مقياس الفضل والكرامة ، هو حسن العمل ومقدار النفع الذى يقدمه الشخص للإسلام والمسلمين « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأفضل الناس أبعدهم عن الشرك وأنفعهم للناس ، وأشقى الناس من شقى به الناس . « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » حرية تامة . ومساواة مطلقة ، لا يقيدهما إلا صالح الإسلام والمسلمين . والناس فى ذلك سواء ، ليس لأحد أن يبتغى عزة أو سيادة على أخيه ، فإنه من كان يريد العزة ، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ومن ابتغى وراء ذلك فهم العادون . فالله سبحانه هو السيد وخلقه هم عبيده ونسبتهم إليه واحدة ، يعيشون فى ملكه الذى خلقه لهم ، وسخر لهم ما فيه .

ثالثاً — المجتمع المسلم . هو مجتمع يقوم على مبادىء الإسلام . ويرتبط أفراده بجملة روابط قوية ، تتحكم فى قوته ، وتوجهه إلى الهدف المنشود . يربط بين أفراده اعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، لأنه الصانع الذى يملك ما صنع ، وتربط بينهم أخوة إنسانية عامة : لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتربط بينهم أخوة فى الإيمان بالإسلام ، عقدها الله بينهم لتكون منهاجا لتحقيق الأخوة الإنسانية العامة فى محيطها الواسع ، إذا رغبت الإنسانية فى سعادتها بالإسلام ، وتربط بينهم وحدة الهدف ، وهو نشر الإسلام ، للبلوغ بالانسانية كلها ، إلى الكمال والسعادة والسلام ، وتربط بينهم وحدة التكاليف لبلوغ الهدف . فلا اختيار ولا امتياز لأحد فى التكاليف الربانية ، يستوى فى ذلك المسلم الأول صلوات الله وسلامه عليه وأصغر المسلمين شأنا ، ويربط بينهم . مسئولية عامة مشتركة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة ، وتوفير كل مستطاع من وسائل الحياة الحرة الكريمة للفرد والجماعة .

رابعاً — هذا المجتمع الذى يقوم نتيجة لمبادىء الإسلام ، ويرتبط أفراده بهذه الروابط ، هو مجتمع يقوم فى أرض الله ، ومجموعة أفراده (الأمة) مخاطبة رأساً بتكاليف الله (يا أيها الناس) ، (يا أيها الذين آمنوا) ، (افعلوا الخير) ، (واعبدوا الله ولا تشركوا) ، وخطاب الله للأمة شمل جميع التكاليف الفردية كالصلاة والزكاة والصوم ، والجماعية كالحكم ولوازمه من إقامة العدل وتنفيذ الحدود « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . » الخ . وهذه المجموعة قد استخلفها الله فى أرضه لعمارتها واقامة أحكامه المكلفة بها ، فكل

مكتبتنا العربية

ما تملكه فهو ملك الله ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « وكلوا من رزقه » ،

وهذه الأمة المخاطبة المكلفة المسئولة ، هى الأمة الإسلامية ، فإن عاشت كلها تحت لواء واحد ، وحكم واحد ، وخضعت لمقدرات واحدة ، فى الأرض المحدودة التى تعيش فيها شعوبها ، والتى لا يسيطر عليها غير أبنائها ، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها ـ كما كان الحال فى عصور الخلافة الإسلامية مثلا ـ إن كانت كذلك قامت الدولة الإسلامية . التى تظل الأمة الإسلامية . وإن عاشت شعوبها مستقلة كل شعب فى أرضه ، يحكمه حاكم خاص ، غير حكام بقية شعوبها ، قامت فى أرض كل شعب دولة مسلمة ـ كما هو الحال اليوم ـ تتميز بكل مميزات الدولة ، ولكن هذا الاستقلال والامتياز يجب ألا يخرجها عن أن تكون حلقة قوية فى سلسلة الدولة الإسلامية الكبرى « كالبنيان يشد بعضه بعضا »

خامساً ـ كل دولة لها سيادة عامة على بنيها وأرضها وكل مقدراتها لا تخضع لسيادة دولة أخرى فى شىء من ذلك . والدولة الإسلامية ، لها شخصية معنوية ، هى مناط التكليف والمسئولية . وهى التى رد الله إليها العزة والسيادة فى أرضه التى تعيش فيها ، بعد الله ، والرسول الذى أبلغ إليها شرع الله ، ووكل الله إليه تنفيذ أوامره والإشراف على مقتضيات سيادته ، إماماً ، وقاضياً ، وقائداً ، وحاكماً عاماً للمؤمنين ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » . فالأمة لها على نفسها ـ بعد الله والرسول ـ السيادة المطلقة نيابة عن الله ، لا ينازعها فيها منازع . لها كلها كمجموعة ـ لا لفرد من أفرادها ، ومن حق هذه الأمة المكلفة المسئولة ، أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها ـ فرداً أو جماعة ـ لأنها مجتمعة لا تستطيع مباشرة تكاليفها ، وهذا الاختيار من الأمة يقوم على الرضا ، وتوخى المصلحة العامة ، لا بقهر ولا جبر ، ولا خديعة ، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها ، وليس له شىء من السيادة عليها ، لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل فى سائر العقود ، من رقابة الأصيل الذى يحدد له تصرفاته ، ومن هنا جاء الشبه بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، فهناك حقيقة تعاقد بين الأمة ، ومن تختاره لقيادتها يتمثل فى البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين ، وتعهده هو بالعمل على ذلك ، ولكن شتان بين التعاقد فى نظريات غير المسلمين ، والتعاقد عند

مكتبتنا العربية

المسلمين ، فالأول تعاقد يقوم على تنازل الأفراد عن شيء من حقوقهم لمن يختارونه وسلطانهم عليه بعد ذلك منعدم أو محدود ، أما تعاقد المسلمين ، فهو مجرد توكيل للحاكم يباشر بمقتضاه . وفق شروط خاصة ، سلطات الأمة . ويخضع فى جميع أموره لسلطان الأمة ورقابتها ، وليس له عليها سوى حق الطاعة إذا التزم الشروط التى تعاقدوا عليها معه ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بشيء من التفصيل .

سادساً : الدولة التى تقوم وفق ما ذكرنا من القواعد السابقة هى : دولة الله ! ! بمعنى أن الله هو خالقها ومالكها والمشرع لها ، وصاحب السيادة المطلقة عليها ، لا ينازعه فى ذلك منازع مما خلق ، وأن الأصل فيها ، هو تكليف الله للأمة ، ومسئوليتها عن صالح الدين والأفراد أمامه سبحانه ، وإنابة الله للأمة عنه سبحانه ، فى مباشرة السيادة عليها ومقتضيات هذه السيادة : ونحب أن نشير هنا إلى أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم ، قد حرص تمام الحرص على أن يجلى هذا المعنى لأتباعه وخصومه على السواء ، حتى فى أيام المحنة الكبرى ، عند ما ثار كثير من القبائل على سلطانه ودينه ، وتنبأ كثير من الناس بدافع العصبية والحسد للرسول والقريش فقد كتب مسيلمة الكذاب إلى الرسول الصادق عليه السلام ـ يقول : إن الله قد أشركنى معك ، فلنا نصف الأرض ولقريش نصفها . ولكن قريشاً قوم لايعدلون يريد مسيلمة ـ وقد ظن الرسالة ملكا أو تهدى إلى الملك ـ أن يقتسم الملك والسلطان مع الرسول القرشى فى وقت تألبت عليه فيه قبائل كثيرة فى اليمن وفى نجد وفى اليمامة وفى بنى حنيفة وغيرهم ، وقدر أن الرسول فى محنته هذه ، لابد أن يجيبه ، ولو أن شيئاً من ذلك كان جائزاً فى نظر الرسول عليه السلام لأجابه وحل الأزمة ، وأراح الإسلام والمسلمين من شرور كثيرة متوقعة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام رد عليه يقول : بعد الحمد لله والثناء عليه وإظهار كذب مسيلمة : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقد قال عليه السلام لواحد من أتباعه قد تلجلج أمامه فى الكلام « هون عليك فلست بملك فأستعبدكم ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى للرسول : « لست عليهم بمسيطر » .

وفى الكلمة التالية إن شاء الله نناقش نظرية الإسلام معارضة بنظريات غير للمسلمين ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا سواء السبيل .

مكتبتنا العربية

على هامش المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حمدة
المدرس بكلية اللغة العربية

دخل المدينة أول نفر قبلوا الدعوة ، وأذعنوا للحق ، وبايعوا على النصرة والحماية والمتابعة . وكانوا ستة من الخزرج هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة . وعوف ابن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعتبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله ، رضى الله عنهم أجمعين ، بعد أن سبقتهم إليها أخبار تطايرت من مكة ، وأوصاف تناقلها الوافدون ، وحكاها المعجبون ، أمثال « إياس بن معاذ » وأضرابه ممن صدوا عن قبولها وانتهروا فى سبيلها .

واستقبل السابقون الأولون من الأنصار بالفرح والقبول . واتسع لهم من نفوس القوم ما جعلهم يجهرون بالدعوة وينادون بالإيمان ، ففشا الإسلام فى ربوع المدينة ، ودخل الإيمان إلى بيوتها ، حتى لم تبق دار إلا عمرت بالتوحيد ، وآمنت برسول الله .

واتجهت الأنظار نحو مكة ، واشتاقت كثرة من الأنصار لمشاهدة الداعى ، ومبايعة القائم على أمر الله ، وطلبوا لقاءه ليروا بأبصارهم ما أعجبهم الحديث فيه ، والسماع عنه .

وترقبوا الموسم القابل إلى أن حان حينه ، وحل أوانه فتهيأ للرحلة منهم عدد شاركت النساء فيه الرجال ، وشدوا الرحال إلى مكة ، يطلبون الهدى والإيمان ، وما إن وصلوا حتى تلفتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعوزهم طلبه ، ولم يُشقهم نشدده ، وبعثوا عرفاءهم يتوسمون وجهه الكريم ، ويتعرفون عليه ، فالتقوا به جالساً بجوار عمه العباس فى بيت الله المحجوج ينظر إلى الكعبة رمز التوحيد ، وقبلة الموحدين ، فلما وقعت أبصارهم عليه ، سارعوا إليه ، فأخبروه خبرهم ، وأعلموه أن وراءهم من جاء راغباً فى دينه ، محباً فى لقائه ، فوعدهم العقبة ليلا .

مكتبتنا العربية

وفرح الرسول صلوات الله عليه بهم فرحاً شديدا ، فقد أصاب قوماً يبحثون عن الحق ، ويرحلون فى طلب الهدى ، بعد أن أعياه التعب ، وأكده النصب فى عرض الحق على من تنكروا له ، ورفضوا الاعتراف به ،

* * *

ويروى أبو الزبير عن جابر وهو يصور صنيع الناس مع الرسول ، وصنيع الأنصار خاصة معه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الموسم ومجنة وعكاظ يقول : « من يؤمنى ، ومن يؤوينى ، ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يأويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن إلى ذى رحمه فيأتيه قومه فيقولون له « احذر غلام قريش لا يفتنك » ويمشى بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع . حتى بعثنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرؤه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا ، وقلنا « حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد فى جبال مكة ويخاف ، فرحلنا حتى قدمنا عليه وواعدنا العقبة » .

* * *

والتفت العباس إلى النبى وقال له يا ابن أخى : ما هؤلاء القوم الذين جاءوك إنى ذو معرفة بأهل يثرب ، وهؤلاء أحداث لا أعرفهم ؟ ! فأعلمه خبرهم . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العقبة ، وتسلل إليه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان خفية من قومهم ومن كفار مكة ، واجتمعوا عليه من رجل ورجلين وصحب الرسول إذ ذاك عمه العباس وابن عمه على بن أبي طالب ـ على مايقوله بعض الرواة ـ وتقدم إليه الوافدون . وقالوا يا رسول الله « علام نبايعك » ؟ قال : « على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقوموا فى الله ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » . فقام القوم يبايعونه ، وأخذ بيده أصغر السبعين

مكتبتنا العربية

« أسعد بن زرارة » فقال : « رويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله » فقالوا يا سعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، فقمنا إليه رجلا رجلا مبايعين ، وقامت المرأتان وهما « نسيبة بنت كعب بن عمرو » و « أسماء بنت عمرو بن عدى » فبايعهما الرسول صلى الله عليه وسلم من غير مصافحة - جرياً على عادته من التجافى عن مصافحة النساء .

وصرخ الشيطان على العقبة ، وانفض القوم إلى رحالهم ، وتطاير الخبر إلى قريش . فقدمت جلة من أشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا : « يا معشر الخزرج إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا ، وأيم الله ما حى من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم ، فانبعث إليهم من المشركين ما نفى الخبر وكبر الخطب ، وعظم على نفسه أن يكون من الأنصار ذلك دون أن يأمروه أو يشاوروه ، وعد ذلك افتياتاً من قومه لو أنهم فعلوه .

* * *

ورجعت قريش وهى تعلم أن إيمان الأنصار حقيقة واقعة ، وأنه لابد من تعويقهم وصدهم حتى لا يكون لرسول الله فى الجزيرة أرض تُعزُّه ولا نفوس تؤمن به يشع منها نور الله على أرجاء الأرض .

وتلاحق المسلمون ، وجدوا فى الرحيل عن مكة وتبعتهم قريش ، وأدركوا منهم سعد بن عبادة فربطوا يديه إلى عنقه وضربوه وجروه إلى مكة ولولا « المطعم ابن عدى » و « الحارث بن حرب » - وهما أهل النجدة والإنقاذ - ما برح مكة ولا لحق بأصحابه ، وأرسل الرسول معهم « ابن أم مكتوم » و « مصعب بن عمير » ليعلما من أسلم القرآن ، وجمع بهم مصعب أول جمعة فى الإسلام .

عند ذلك شعر صلى الله عليه وسلم أن الدعوة الإسلامية التى ظلت طويلا تبحث عن وطن تأمنه وشعب تركن إليه قد أصابت طلبتها ووقعت على غرضها ، وأن المدينة أصبحت أولى بلاد العرب باحتضان الدعوة ، وحماية الدين .

مكتبتنا العربية

وإذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه المضطهدين أن يخرجوا إليها بدينهم ويفروا لها بإيمانهم فتجهزوا وحملوا الزرارى والأطفال والأموال إلى المدينة ، وأزعج ذلك قريشاً ، فإن الأوس والخزرج أهل شوكة وبأس ، ودارهم دار منعة وقوة .

وضجت قريش لهذا النبأ الجديد فطالما قدروا فيما بينهم أن أمر محمد هين ، وأن استخفافهم به كاف فى رده عن قصده ، ودفعه عن غايته .

وها لهم أن يجد بجانبه من ينصر دعوته ، وينشر دينه ، ويأوى إليه ويؤازره . ثم هو قد أزمع على الرحيل ، وبدأ بترحيل أصحابه ، وهو إن لحق بهم قامت دولته وانتشر دينه ، وفوّت على أصحاب الرياسات الكاذبة أغراضهم وآمالهم . واجتمعوا فى ناديهم اجتماعا حضره أهل الرأى والحجا ، وعرضوا قضية محمد عرضاً جديداً . وبحثوا أمره على ضوء ما جد من حوادث ، وأدلى كل برأيه ، وصرفهم الشيطان عن كل رأى يبقى أنفاس محمد على الأرض . لذلك أعجبهم وأعجب شيطانهم رأى أبى جهل بقتله ، واشتراك القبائل فى ذلك اشتراكا يوزع دمه حتى تنوء عبد مناف بثأره وترضى بديته ، وخرجوا من ناديهم ، وقد أحكموا المؤامرة وعقدوا النية على التنفيذ .

وأعلم الله رسوله بما بيت القوم ، كما أعلمه بما يتخذه حيال صنيعهم ، فأمره أن يفر بدينه إلى المدينة . فإن مكة لم تتهيأ بعد لقبول الدعوة ، وقد أعذر محمد لقومه وعشيرته ، فقد لبث فيهم ثلاث عشرة سنة من عمر نبوته يدعوهم فيها إلى الحق والنور والسيادة والعزة والدنيا والآخرة ، ولكن صادفته قلوب عليها أقفالها ، ونفوس أوصدت عن قبول الحق ، وانصرفت عن الهدى إلى متابعة الشيطان ، وأى شىء يلزمه بالبقاء فيهم . وفى الأرض سعة لقبول الهدى ونشر الدين .

وما كان محمد صلوات الله عليه ليفر من مكة ناجياً بنفسه مما أصابه ولا متخلصاً من آلام جسمية أو معنويه تعرّض لها ، فكل ذلك هين أمام عزيمة أولى العزم ، ولكن الباعث الذى دفعه إلى ترك أحب البلاد إليه هو حرصه على تبليغ رسالة ربه ، بعد أن ضاقت مكة ذرعا بالحق ، وأوشكت الدعوى أن يقضى عليها فى مهدها . ولم يبق من عمر الرسالة سوى مدة قصيرة لا تكفى لنشر دين الله وبث تعاليمه وإصلاحاته . فكان لابد من الالتجاء إلى مكان تدوى فيه كلمة الحق ، وتعز فيه الدعوة ، وقد كانت « طيبة » أرجى أرض الله لنشر كلمة الله ونصرة دينه .

مكتبتنا العربية

أبو العيناء الضرير

فضيلة الأستاذ الشيخ محمود النوادى

المفتش بالأزهر

هذه شخصية طريفة عظيمة ، قد أوتيت من سعة الذرع فى الثقافة والأخذ بأطراف العلوم والمعارف الشيء الكثير ، فأبو العيناء يشبه من هذه الناحية ابن جرير الطبرى ، إلا أنه قد غلبت عليه نواحى الأدب ورواية أخبار العرب ، وهو غير متحفظ من الهزل ولا المجون ، ولا متقيد بقيود التزمت الدينى ، كابن جرير الطبرى .

ولا بد للقارىء أن ينتقل بين الجد والهزل ، وأن يستجم نفسه بشيء من اللهو ليستعين به على الحق ، وأن يسوسها بطرائف الأدب ، لينأى بها عن العطب :

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة ... إلا التنقل من حال إلى حال

وأبو العيناء من هاته النواحى أقرب شبهاً لصديقه الجاحظ . فكل منهما من ظرفاء العالم وأحدّهم ذكاء ، وأبرعهم نكتة ، وأغزرهم ثقافة ، وأجولهم فى شعاب الأدب العربى ، وأكثرهم رواية للأخبار ، وأبلغهم أسلوباً ، إلا أن الجاحظ كان من المؤلفين ، وكان له فى التأليف آثاره الطيبة الخالدة فى شتى العلوم والمعارف على اختلاف ضروبها .

ولعل هذا الضرير لو استدام له بصره ، لاستطاع أن ينافس الجاحظ فى ناحية التأليف أيضاً ، ولكنه عمى فى سن الأربعين تقريباً ، على أنه كتب قبل ذلك السن ، وجمع كثيراً من الأخبار والآثار ، ثم لم يطرد له ذلك ، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن زمن كل من الجاحظ وهذا الأديب يسبق زمن الطبرى بقليل ، والجاحظ أسبق اللاثة فى الولادة وفى الوفاة [١] .

---

[١] ولد الجاحظ سنة ١٦٠ وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . وولد أبو العيناء سنة ١٧١ وتوفى سنة ٢٨٢ ، وولد الطبرى سنة ٢٢٤ وتوفى سنة ٣١٠ هـ كما فى تاريخ ابن خلكان .

مكتبتنا العربية

كانت ولادة أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر ، الذى نريد الحديث عنه ، فى سنة ١٧١ هـ ووفاته فى سنة ٢٨٣ هـ بالأهواز ، وتذكر بعض الروايات أن ولادته كانت سنة ١٩١هـ ، مع الاتفاق على سنة وفاته ، فقد شهد العهد الذهبي العباسى ، وعاصر ثلاثة عشر من الخلفاء العباسيين ، أولهم هرون الرشيد ، وآخرهم المكتفى بالله ، واتصل بالخليفة المتوكل اتصالا ظاهراً ذا أثر بين فى حياته . وله معه أخبار يمر بك بعضها إن شاء الله .

كان إذاً فى عصر يشجع العلم ، ويرفع شأن رجاله ، وهو من الذكاء على ما أشرت لك سابقاً . ونشأ فى البصرة وهى لا تزال مجمع الفقهاء والرواة والمحدثين وأئمة اللغة والأدب ، فكرع من حياض العلم بها ، وكتب عن خيرة رجالها من أئمة الحديث والأدب ، وله روايات لبعض أحاديث يذكرها الرواة ، على أنه لم يكن بالحجة ولا الموثق ، وممن سمع منهم وأخذ عنهم الأصمعى ، وأبو زيد ، وأبو عاصم النبيل وغيرهم من عمد الأدب وأخيار العرب ومن ملأوا الدنيا معرفة ، وسطرت أخبارهم فى كتب الأدب واللغة ، خالدة مثمرة فياضة ، فما ظنك بمن يأخذ عنهم شفاها ويروى عن عدد منهم ، وهو فى مثل ذكاء أبى العيناء وحرصه ، وقد ارتحل من بلده لذلك الغرض . وقد كف بصره كما قلت لك بعد أن بلغ الأربعين . ثم ارتحل إلى بغداد معلماً يزكى ما أخذ ، ويلقن ما جمع ، ويملى على الناس الأخبار ، والأدب والشعر ، وعاد إلى البصرة فى آخر حياته فتوفى بها .

* * *

أما أصله فمن بنى حنيفة ، من سبي اليمامة فى أيام الخليفة المنصور ، فلما صار ياسر فى قيد المنصور أعتقه . وأما ما أصابه من العمى فيذكر الناس له حديثاً طريفاً يفيد أنه وراثى ، ويقول صاحب معجم الأدباء ، وصاحب زهر الآداب : إن ذلك كان بدعوة من على بن أبى طالب على جده الأكبر الذى كان يلقى علياً ، فأساء مخاطبته ، فدعا عليه بالعمى ، فهم يتوارثونه فكل أعمى فيهم صحيح النسب ، ويقول الخطيب : إن الدعوة كانت من عبد الله بن حسن العلوى على جده الأدنى (خلاد) .

ويروى ذلك عن أبى العيناء نفسه ، فخلاد كان جاسوساً من قبل المنصور على مناوئه عبد الله بن حسن ، فى صورة المشايع له ، وقد زوده المنصور بالأموال

مكتبتنا العربية

يبذلها لعبد الله بن حسن ويتعاون معه فى الظاهر ، ولكنه يكتب إلى المنصور بأنفاسه ، وأحوال أبنائه وشيعته ، وكان عبد الله بن حسن راضياً عنه معجباً به ، فلما اتصلت به حقيقة خبره ، دعا بالعمى عليه وعلى نسله ، فهم يتوارثون ذلك . أما نحن فسواء عندنا أصح الخبر الأول أم الثانى ، أم لم يصح واحد منهما ، مادمنا قد علمنا أنه عمى بعد الأربعين . وأن ذلك العمى كان له أثره فى بعض ما كان له من صفات تبدو فى أخباره ، وتتمثل فى آثاره الحسن منها والسيء . فقد أفاد منها كثيراً فى إلهاب جذوة النشاط الفكرى ، وقوة الحافظة والذاكرة ، وصرفته عن بعض نواحى اللهو التى لا مأرب فيها لأمثاله إذ ذاك ؛ على أنه قد أساء إليه فيما كان يلم به من بعض الضغن والحسد على خلق الله ، مما يتجلى فى السب والطعن الذى ترامت أخباره إلى الخليفة المتوكل ، وقد حاول أن يحوله عنه فكان يحتج له ويدافع عنه فيقول فى بعض دفاعه :

« يا أمير المؤمنين قد مدح الله وذم ، فقال (نعم العبد إنه أواب) ، وقال (هماز مشاء بنميم)

وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقا ولم أشتم النكس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفما »

وقد رفع عنه شيئاً من برقع الحياء ، فكان يواجه بالمكروه ما يبالى شيئاً .

روى صاحب زهر الآداب عنه قال : « كان عيسى بن فرخان يتيه علىّ فى ولايته الوزارة ، فلما صرف عنها رهبنى ، فلقينى فسلم على فأحفى فقلت لغلامى : من هذا ؟ قال : أبو موسى ، فدنوت منه وقلت :

« أعزك الله ، والله لقد كنت أقنع بإيمانك دون بيانك . وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، لقد أصابت فيك النقمة . ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، لقد أبدت محاسنها بالإدبار عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم » .

مكتبتنا العربية

فهذه مواجهة من أسوأ المواجهات ، ومهاجمة من أنزل المهاجمات ، لا ينتصب لها إلا مثله وكفى بها دلالة على مقدار ما صنعت به علته ، على أن لها دلالتها على بلاغة الرجل وطول نفسه فى البيان .

وقد سأله القاضى العظيم ابن أبى دؤاد : ما أشد ما أصابك فى ذهاب بصرك ؟ فقال له : أمران ، يبدؤنى قوم بالسلام وكنت أحب أن أبدأهم ، وأنى ربما حدثت المعرض عنى وكنت أحب أن أعرف ذلك فأقطع عنه حديثى . فآساه القاضى بقوله : أما من ابتدأك بالسلام فقد كافأته بحسن النية ، وأما من أعرض عنك فما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر مما وصل إليك من سوء اجتماعه .

وفى أخباره ما يدل على أنه كان قبل العمى أحول . روى الخطيب بسنده إليه ، قال مدحنى أبو العاليه بقوله :

كتبت لابن قاسم مأثرات فهو للمجد صاحب وقرين
أحول العين والمودة زين لا احولال بها ولا تلوين
ليس للمرء شائناً حول العين ، إذا كان فعله لا يشين

فلما سمع محمد بن المرزبانى الأبيات قال : يا أبا عبد الله وكنت قبل أن يذهب بصرك أحول ! من حول إلى عمى ، من سقم إلى بلا وانظر ما أجابه به أبو العيناء لتعلم ما أوتيه من السلاطة وما منى به من قلة التحفظ ، وما أكسبته تلك العاهة من غيظ . قال أبو العيناء لابن المرزبانى : هذا أظرف خبر تصعد به الملائكة إلى السماء اليوم . أيما أصلح ؟ من السقم إلى البلاء ، أم حال العجوز أصلحها الله من الزنا إلى القيادة . لقد رمى أم صاحبه بأفحش ما ترمى به النساء . وسترى أن ذلك العمى قد فوّت عليه فرصة منادمة المتوكل ، وأوجب له عقدة نفسية واضطراباً .

* * *

فأما كنيته (أبو العيناء) ، فإنها ترجع إلى عهد اتصاله بأستاذه فى العربية أبى زيد بن أوس الأنصارى قبل أن يكف بصره وهو يطلب العلم بالبصرة ، ولعله كان أعين واسع العين إذ ذاك . فقد عاد إلى البصرة من بغداد فى آخر حياته ، وكان محبو العلم والأدب يصيرون إليه فى داره يسمعون كلامه ، ويكتبون عنه ، فسأله

مكتبتنا العربية

سائل : يا أبا عبد الله كيف كنيت أبا العيناء : قال : قلت لأبي زيد كيف تصغّر عيناً ، قال عيينا ، يا أبا العيناء .

كانت البصرة كما رأيت مستراد أبي عبد الله ومذهبه ، ومسعاه في جمع العلم وتحصيله ، وأنا أستظهر أنه تعلم ببلدته الأولى (الأهواز) ، شيئاً من مبادىء العلم كما هو الشأن في بدء تعليم العلماء حين يقوم آباؤهم بشئونهم . وإن ما يذكر الأدباء والأخباريون حوله ، يدل على أنه التمس بالبصرة الحديث والأخبار ، وكان همه أن يجمع الشعر والأدب والرواية ، ويقول الخطيب في بعض أخباره : أنه أتى أبا عبد الله الخربي من علماء السنة بالبصرة فجرى بينهما ذلك الحديث :

الخربي — ما جاء بك ؟ أبو العيناء — الحديث .

الخربي — اذهب فاحفظ القرآن . أبو العيناء — قد حفظت القرآن .

الخربي — إقرأ واتل عليهم نبأ نوح . قال أبو العيناء : فقرآن العشر حتى أنفدته .

الخربي — اذهب الآن فتعلم الفرائض . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخربي — أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟

أبو العيناء — ابن أخي الخربي — ولم ؟

أبو العيناء — لأن أخي من أبي وعمي من جدي .

الخربي — إذهب الآن فتعلم العربية . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخربي — لم قال عمر بن الخطاب يال الله يال المسلمين ، لم فتح تلك وكسر هذه ؟

أبو العيناء — فتح تلك اللام على الدعاء ، وكسر هذه على الاستغاثة والاستنصار .

الخربي — لو حدثت أحداً حدثتك .

وأقام أبو عبد الله بالبصرة حتى عظم شأنه ، فأفاد العلم والمال والجاه والمنزلة .

وفي كلام بعض الشعراء ما يدل على أنه أفاد بالعمى بعض المادة والثراء قال أبو علي البصير :

قد كنت خفت يد الزما ن عليك إذ عمي البصر
لم أدر أنك بالعمى تغنى ، ويفتقر البشر

وفي البصرة جرى عليه ما وصله بالقاضي ابن أبي دؤاد رحمه الله ، فازداد رفعة ونباهة ، بعد محنة كادت تعصف به ولكن الفضل يعرفه ذووه .

روى الخطيب بسنده إلى أبي العيناء قال : كنت في أيام الواثق مقيما بالبصرة ، فكنت يوما في سوق الوراقين بها ، إذ رأيت مناديا ينادي على مصحف مخلق الأداة ، فقلت له : ناد عليه بالبراءة مما فيه . وأنا أعني به أداته . فأقبل المنادي ينادي بالبراءة مما في المصحف ، فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادي ، وقالوا ياعدو الله تنادي على المصحف بالبراءة مما فيه وأوقعوا به . فقال لهم ذلك الرجل أمرني فتركوه وأقبلوا إلي ، وتجمعوا علي ، ورفعوني إلى الوالي ، وعملوا لي محضراً ، وكتبوا إلى السلطان . فحول أمري إلى القاضي ابن أبي دؤاد فتكفل بالفحص عنه .

وتتابعت الكتابة في شأني فقلت لابن أبي دؤاد : قد كثر تجمع هؤلاء الهمج على وهم كثير . فقال ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

فقلت : قد بالغوا في التشنيع علي ، فقال : لا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

فقلت : إني على غاية الخوف من شرهم ، ولن يخرج أمري من يدك .

فقال : لاتحزن إن الله معنا ـ فقلت : القاضي أعزه الله كما قال الصموت الكلابي .

لله درك أي جنة خائف ومتاع دنيا أنت للحدثان
متخمط يطأ الرجال بنعله وطء العتيق دوارج القردان [1]
ويكبهم حتى كأن رؤوسهم مأمومة تنحط للغربان
ويفرج الباب الشديد رتاجه حتى يصير كأنه بابان

فقال القاضي ـ يا غلام : الدواة والقرطاس ـ أكتب الأبيات .

ولم يزل يتلطف في أمره حتى أخرجه . . . وقد طال بنا القول فحال دون أن نمتع القارىء بقصته الطريفة مع الغلام الذي أخرجه من البصرة ، ولا أن نتحفه بشيء من أدبه في النثر والشعر ، غير ما مضت مناسبته ولا بشيء من نكته وملحه وأجوبته المسكتة ، فالى العدد القادم إن شاء الله .

---

(١) البيت كناية عن سطوته حتى إنه لا يبالي بالرجال كما لا يبالي الفحل إذ وطىء القردان

مكتبتنا العربية

الإيمان بالله

فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على ابو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

القرآن الكريم ، حينما يلفت أنظارنا إلى ملكوت السماوات والأرض ، ويدعونا إلى النظر فيه ، والتأمل فى صنع ، الله الذى خلق كل شىء ، لا يقصد بذلك كله أن نمتّع الخاطر بدقة نظامه ، وبديع هندسته ، ورائع تصديفه ، وغريب تسخيره ، الذى أذهل العقول ، وأدهش الأفكار ، وحير الأفئدة ، وهال البصائر ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن قصده سبحانه ، لأنه غنى عن العالمين .

ولكنه لما خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، كرّمه عن الذلة ، ورفعه عن المهانة ، وسما به عن الصنعة ، وباعد بينه وبين الإسفاف ، فجعل له العزة دون المخلوقات ، ولا يتم له ذلك على وجهه الصحيح ، ما لم يعمر قلبه بالإيمان بالله الذى خلق الماء والهواء ، وتحكم فى الوجود والفناء ، وقضى بالصحة والمرض ، والغنى والفقر ، ووزع الحظوظ والأرزاق ، ومن الغريب أن العبد إذا ما خضع للعبد ، ذهب ماء وجهه ، وضاع الكثير من آدميته ، وفقد مهابته واحترامه ، وصار أشبه بالدابة الذلول ، التى يستخدمها المستخدمون فى قطع المسافات ، ونقل المتاع ، وجرّ العربة ، وشق الأرض ، وسق الزرع .

وعلى العكس من ذلك ، إذا ما ترامى على عتبات سيد الوجود ، وتفانى فى ذات المعبود ، وبالغ فى الزلفى من رب الأرباب ، ومسبّب الأسباب . والسر فى ذلك أنه جل جلاله لا يُعيّر عبده بهذا الخضوع ، ولا يزيده ذلك جبروتا ولا عظمة ، فقد تناهى مجده ، وامتد سلطانه ، وانبسط فى الملكوت كله جاهه ، فلم يعد بحاجة إلى طاعة الطائعين ؛ على أن ذلة المكلفين له ، أو نزولهم على إرادته ، وانقيادهم لأمره ، هو أصل الفطرة ، واستجابة الغريزة ، وتجاوب الطبع ، وحكم العادة . ولذلك يستشعر المسلم منه الكرامة والإباء ، والترفع والتعالى ، والتطاول والكبرياء والزهو والخيلاء .

وكلما أحس بدنوه من الله ، كلما أحس بأنه يحلق فى الدنيا ، ويشرف على البسيطة من علياء لا يتطلع اليها النظر ، ولا يصل إلى آفاقها الوهم ؛ وربما كان هذا هو السبب فى أن المرء حينما يدرك هذا الشأو ، وينتهى إلى تلك الغاية ، يحتقر الحياة والأحياء ،

مكتبتنا العربية

ويزهد فيما يحتويه ذلك الكون الخادع الخلاب . وهذا هو العلة في أن الله لا يغفر أن يُشرَك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، لأن الإشراك يتنافى مع الإيمان بالإله الحق . والخالق المبدع ، والفرد الصمد . وإلى هنا نستطيع أن نفهم ثورة أسلافنا العلماء على المسلطين من أرباب الحكم والجاه ، والبطش والظلم ، والعسف والطغيان ، ونعلم تأويل قول « الجبائى » : ما فى الجبة إلا الله . . .

ولقد كان هذا هو الهدف الذى وقف النبي صلى الله عليه وسلم له سبحه فى بادىء الأمر بمكة زهاء عشر سنوات ، يحتمل من قومه من الأذى ، ويلاقى من الهوان ، ويتكبد من الشدائد ، ما لا يصبر عليه إلا الصناديد ، ولا يصمد له إلا الأبطال .

وجاء فى الكتاب العزيز الأمر به فى مواضع متنوعة ، ومواطن متعددة ، وأجمع العلماء على أنه الدعامة التى عليها تستند العقيدة ، أو يتركز الإسلام . وعلى الرغم من أن الدين المعاملة - كما يقولون - وإن الناس إنما يهتمون بما يتبادلونه من منافع ، وما يتناوبونه من معونة ، وما يبذلونه من بر ومعروف ، فإن الله لا يقيم لذلك وزنا ، إلا إذا كان قائما على الإيمان به « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » ؛ والكفار مهما كان سلوكهم الطيب ، وخلقهم الحميد ، وبذلهم على الإنسانية ، وأثرهم على الإصلاح والعمران ، لا يتقبل منهم صنعاً ، ولا يجزيهم على المعروف معروفاً ، ولا يخفف عنهم شيئاً من عذاب جهنم : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . ولأن هذا الإيمان محله القلب ، فقد طلب منا أن نطهره بالصوم ، ونقويه بالصبر ، وكانت من سننه تعالى المحن يبتلى بها الأخيار من عباده ، لا ليعلم منهم ما لم يكن يعلم من الجلد للنوازل ، والرضا بما يقضى عليهم ، ولكن ليراقبوا ضمائرهم ، ويهيمنوا على هواجسهم ، ويتحكموا فى دخائل نفوسهم ، ويتصرفوا فى شؤونهم بالعقل لا بالهدى . وبالتفكير والرأى ، لا بالنزق والطيش ، ونحن معرضون دائماً أبداً للسهو والغفلة والترك والنسيان .

وجاء الحديث الشريف فى أكثر من مناسبة ينوّه بشأن القلب ومكانته بين الجوارح : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهى القلب » . « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وكان من السنة وضع اليدين على القلب فى الصلاة إيقاظا له فلا يغفل ،

مكتبتنا العربية

وحرصا عليه من أن ينصرف عن هذا الاتجاه الذى يتجه إليه المصلى بهذا الموقف الذى يتفه . ! ! ويرى بعض الباحثين أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه من الاعتباريات التى لا وجود لها حتى يتوجه إليها النقصان والزيادة ، وليس يدخل فى مفهومه ، الذى هو إذعان القلب وانقياده ، زيادة أو نقص .

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى أبى بكر رضى الله عنه : إنه لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ، فإنه يؤول بما يصرف اللفظ عن الظاهر ، على أن الزيادة والنقصان من الأمور المعنوية التى يدركها الإنسان بآثارها ، ويعرفها بمقدار بواعثها ، فإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » .

والإيمان بالله هو الذى حمل الصدر الأول أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، وأن يبذلوا نفوسهم وأموالهم فى سبيله ، عن طيب خاطر ، وهدوء بال ، واطمئنان ضمير ، وكانت لهم العزة والمهابة ، والمجد والجاه ، والبأس والسلطان .

والإيمان بالله - إلى جانب كونه يربط المرء بربه - يباعد بين صاحبه وبين بعض الصفات الخلقية المرذولة ، كالنفاق والملق ، والتواضع الممقوت ، والكذب البغيض ، ومن هذه يدب الفساد ، وتشيع الفوضى ، وتتأصل فى المجتمع جراثيم من الشرور لا عداد لها ، ولا تخلص منها ، اللهم إلا الإقلاع عن هذا الصغار من السلوك ، وهذا التدلى فى الأدب ، وهذا الخلط فى المعاملة .

والذى يدرس البيئات المنحطة فى طباعها ، الواهية فى عاداتها ، المريضة فى أخلاقها ، لا يجد إلا أنها متحللة من صفة « الإيمان بالله » ، متفككة من هذا الرباط المقدس ، وعلى قدر ما تكون الأفراد أو الجماعات آخذة به ، عامرة قلوبها منه ، تكون قوتها المادية والمعنوية ، وقصة الرجل صاحب الدين على بعض العرب من قريش ، الذى حضر من البادية ليتقاضاه ، وكان يتلمس إنساناً ذا جاه يستعين بجاهه على قضائه من المدين ، وقد دلوه على النبى صلى الله عليه وسلم - استهزاء به ، وسخرية منه - فلم يسعه إلا أن يذهب معه إلى المدين يطالبه ، صورة من هذا الإيمان فإن الرجل المماطل لم يكد يرى وجهه المشرق ، وجبينه المضىء ، وطلعته الراهبة ، حتى اضطرب ، وأخذته رعدة من الخوف ، وبادر إلى المال يسلمه لصاحبه شاكراً له الصنيع الطيب ، والفعال الكريم .

فاللهم ارزقنا هذا الخلق فلا نؤمن إلا بك ، ولا نذل إلا لك ، ولا نرجو سواك ، ولا نخاف غيرك ، إنك أنت الخالق الرازق ، الضار النافع ، والناس كلهم عيال عليك !

مكتبتنا العربية

أهداف الاستغفار في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

هناك جانب من تعاليم الدين الحنيف لا يسهل على الفرد العادى أن يعرف حكمته بالنظر العاجل أو الهوى المائل ، بل لابد من التأنى والتحرى ، ومعرفة مداخل العلل والأسباب ، ودراسة منابع الحكم والثمرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكما صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه هذه التعاليم من أسرار وثمار ؛ « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

يمر بالخاطر مثلا موضوع الاستغفار فى الإسلام ، فنرى عجباً ، ويبدو ما يستوجب النظر ويثير الفكر ، إن آيات الاستغفار ، وأحاديث الحض على التوبة كثيرة كثرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم ، وهو هدى العلى الحكيم . لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به ويحرض عليه فيقول : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ، ويأتى بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، فيستفيض فى توسيع الباب قائلا : لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم ! . . ويعود القرآن المجيد فيذكر العباد : بأن الله هو البر الرحيم ، والرؤوف الكريم ، الذى يجب أن نقصده لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، وأن نلجأ إليه فى الأزمات مهما كانت شدائد ، فيقول : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ؟ . . ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ثم يعمم المغفرة والقبول لكل من تاب وأناب ، مهما سلف منه ، فيقول : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » . . ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم ، حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم لغفر الله لكم » . . إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران ! .

مكتبتنا العربية

قد يضل ضال فى فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن الباب مفتوح له بترحيب وبلا نظام ، مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس الأمر كما حسبت ، وليست المسألة مسألة كلمات ترددها الشفاه ، بلا ندم على ماسبق وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم أكيد على الاستقامة ، وبلا إصلاح لما يمكن إصلاحه من فتوق ، فإن رب المغفرة والمتاب ، هو أيضاً رب المعاقبة والحساب ، والذى وسعت رحمتـــه كل شيء هو نفسه الذى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ويقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ والله الذى قال لنبيه : « نبيء عبادى ، أنى أنا الغفور الرحيم » هو نفسه الذى قال عقيب ذلك مباشرة : « وأن عذابى هو العذاب الأليم » .

لعل اللاهى الضال سيعود إلى الاعتراض قائلا : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع . فيقال لذلك الغافل : إن التناقض ليس موجوداً إلا فى ذهنك الضيق وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصيك فى أمر جامع عام ، وضعه رب العالمين للعالم وفيهم أصناف وأشكال وألوان ، وما هذا الحديث الطويل فى القرآن عن الاستغفار والحض عليه ، إلا أسلوب الحكيم العليم فى تربية الخلق ، وإحياء الضمير ، وإماتة السيئة ، والاستكثار من الحسنة ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية .

إن الإسلام الحنيف بأسلوبه هذا فى التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان خطاء ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، لإظهار الفرق بين المخلوق والخالق ، ولإيجاد ميدان المجاهدة والتنافس فى القربى . فلو سد الإسلام فى وجهه باب الندم والتوبة والتخفف من أوزار الماضى للنهوض بطيبات الحاضر وحسنات المستقبل ، لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ؛ وإذن فليلتمس الإسلام للخاطىء عذرا ، وليبسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوى التذكار والاستحضار المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التى تحيي موات الضمير فى الإنسان ، وينقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ويعده عند الإخلاص والصدق مغفرة ورضوانا ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، حينما كان

مكتبتنا العربية

يحرض صحابته على الاستغفار ، ويخبرهم أنه يستغفر فى اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيئون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب . فهو بالمؤمنين رءوف رحيم ! .

ومن أهداف الاستغفار والمتاب فى الإسلام أيضاً ، إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الحيارى الضعفاء ، فهو الذى برأهم ، وهو الذى أنعم عليهم ، وهو الذى حلم معهم ، وهو أيضاً الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فيالها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذى يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلا ، فإنه كما يقول القرآن : « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، ويهيء لهم دائما فرصة للارتداع والاسترجاع ، والله أفرح بعبده التائب من الذى فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ، فيكون ذلك إشعاراً بعد إشعار بفضل الله الواسع ، ومنته الكبرى وآلائه العظمى ، فإن لم يخضع العبد عن طريق الرهبة والتخويف ، استجاب عن طريق التكريم والإنعام ؛ وها هو ذا سبحانه يضاعف ألطافه فيجعل فرصة التطهر والتخلص ممزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر . فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الإثم ، وإتيان الحسنة محواً للسيئة . وفى ذلك ما فيه من الإغراء والتحريض على الدنو من حمى الخيرات ؛ فيقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » . ويقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن أهداف الاستغفار الذى جعله الإسلام متكرراً كلما تكرر الذنب والخطأ ، تربية الحياء والخجل فى نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فغُفر له ، ثم عاد فأخطأ فاستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه - إن لم تكن قد ماتت - بأن هذا لا يليق به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذى ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحي من تكرار خطئه ، فيستشعر فى صدره قوة عزم على المقاومة للهوى والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذى أراده علىٌ رضى الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلا : رجل أذنب

مكتبتنا العربية

فماذا يفعل ؟ . قال على : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد . قال على: يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد !. قال على : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزى الشيطان ! .

ولو فرضنا هنا ما لا يليق بالمرء ، وهو أن يستمر فى غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا المريت الخبيث كيلا يكون له على الله حجة ، بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم .

ولعل الإكثار من الحديث عن الاستغفار فى الإسلام ، فيه إشعار للهداة وتذكير للمصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يجمل صبرهم ، فلا يتضايقوا ولا يأسوا لرؤية الفشل أو تكرر الزلل ، بل يحتملون الصدمات ويعاودون الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاما وطبيعة فى الناس، لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » .

ولا ننسى أيضاً ما فى الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة إلى رحاب المناجاة ، وانقطاع عن هواتف التراب واتصال بالملأ الأعلى ، وفى ذلك استعداد قوى وتهيؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوى الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم مخرجا ، ومن كل ضيق فرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ! .

أما بعد ، فإن الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع للهوى الأثيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، وأن نتجنب السوء ما قدرنا ، ولا يضيرنا أن نعثر مرة ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين ، فلنرفع رؤوسنا من جديد ، ولنطو صفحات الماضى بما فيه ، ولنستغفر الله منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! .

مكتبتنا العربية

شعاع من فجر الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد غلبة

المدرس بمعهد القاهرة

إنه شعاع الإيمان المتلألىء ، انبثق فى ظلمات الحياة ، فتمشع دياجيرها ، ومحا جاهليتها ، وشتت حمقها وضلالتها .

شعاع الإيمان الذى سكبه الله فى قلب محمد عليه السلام ، فغمر جانبيه هدى ونورا ، وجعل من نفسه البشرية ، نفساً ملائكية تفسر على ضوء إيمانها أسرار هذا الوجود .

الإيمان الذى شيد من نفس محمد عليه السلام أمة ، وبنى من أمة محمد عليه السلام قوة لا تثبت أمامها قوة .

الإيمان الذى خلق من حفاة الصحراء قادة ، ملكهم إيمانهم نواصى الحياة ، وأذرى بالشدائد .

الإيمان الذى انبعث من ذلك القلب فزعزع بطش الجبارين ، وزلزل صلف المتألهين ، وحطم غدر المتذئبين .

الإيمان الذى خلق من القلوب الصحراوية رحمة ، ومن جشعها قناعة ، ومن غلظتها وداعة ، حيث تحمد الوداعة ، وعفواً حيث تكون القدرة .

الإيمان الذى جعل من المرأة قوة تفتك بعنت العتاة ، وخلق من فاطمة بنت الخطاب سلاحاً يخضع جبروت عمر حين تصيح فيه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » ، فيستسلم عمر الجبار إلى ذلك الإيمان الدافق تتفجر ينابيعه من قلب المرأة الضعيفة .

ذلك الإيمان الذى جعل من المسلم الأول أمة يعيش للأمة ، ويعنى بالمجتمع ، لا فرداً تسيطر عليه الفردية ، وتتحكم فيه النفعية الشخصية ، ويعنى بالأسرة الصغيرة ، فيشيد لها ويدخر .

مكتبتنا العربية

فأبو بكر ، رضوان الله عليه ، يدفعه إيمانه إلى الجود بكل ماله لله ولرسول الله ، ولنصرة دين الله ، ثم هو لا يترك لأولاده قوتاً ثقة منه بالله ، أنه بهذا البذل يبنى الأمة قبل الأسرة ، ويؤسس للدولة قبل الولد ، بهذا الإيمان من أبى بكر ، وبمثله من غير أبى بكر ، ساد العرب وعز الإسلام .

ذلك الإيمان هو الذى جعل للعرب الغلبة والسيادة ، فانطلقوا تحت رايته يدعون إلى المبادىء السامية ، مبادىء الإخاء والمساواة ، مبادىء الإنسانية ، فتفتحت الدول أمام دعوتهم قبل أن تفتح بسيوفهم ، وتطلعت الشعوب المظلومة إلى تلك المبادىء التى جاء بها الإسلام لتنقذها من ظلم القيصرية وجور الاستعمارية ، ذلك هو الإيمان الذى جعل بلالا وأمثال بلال يستمرئون مر العذاب فى سبيل إيمانهم ، فحر الرمضاء الذى يشوى الجسوم لم ينهه إيمان الأرواح ، ولم يزعزع ثقة النفوس ، لأن إيمانها أعظم من أن يخضعه جبروت أو يذله عنت ، والإيمان وحده هو الذى نصر ثلاثمائة من المسلمين على ألف من المشركين فى بدر ، سلاح المؤمنين الإيمان وحده ، وللمشركين سلاح من عددهم ، وسلاح من مالهم . وسلاح من خيلهم ، ولكن كل هذه الأسلحة لم تغن أمام الإيمان شيئاً .

لقد حمل المسلم الأول إيمانه بين جنبيه ، وألقى عزمه بين عينيه ، واندفع عاصفاً يقطع أعناق الجبال الأسيوية ، ويمرق فى وديانها ، حتى انتهى إلى إفريقية ، فأثار رمالها ، ومر على خصبها وجدبها ، ثم قطع البحر إلى أوروبا ، وهو يجلجل حيث سار ، ويؤذن حيث أقام :

الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ؛ هتف الأذان ، ونادى الإيمان ، فصمتت الصوامع والبيع ، وأخرست النواقيس وراح الحق ينادى فى الناس : حى على الصلاة ، حى على الفلاح . فتجاوبت الأرواح فى أوروبا وإفريقيا وآسيا : لبيك لبيك .

وهكذا جرى الإيمان نوراً يهفو إلى القلوب فتتفتح له كما يتفتح الزهر لبسمات الصباح ، وتنتعش به النفوس كما تنتعش الورود ببسمات الربيع .

لقد آخى الإيمان بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها منذ بدا فجره ، فلا يئن مسلم فى اليمن ، حتى تسمع صدى أناته فى المدينة ودمشق وبغداد ومصر

مكتبتنا العربية

وقرطبة ، ولا يستغيث عربى فى خيامه الضاربة فى حضن الجزيرة العربية ، حتى تجاوبه الأصوات فى مصر وقرطبة وبغداد ودمشق : لبيك لبيك ، وهكذا كانت أخوة الإيمان ، يجمع المسلمين إحساس واحد وإن اختلفت أقطارهم وتناءت بلدانهم .

فأين نحن الآن من هذا الإيمان ؟

الأمة العربية مضطربة ، والشعوب الإسلامية مفككة ، بل الأسرة الصغيرة متنافرة متناحرة .

يا رحمة السماء ، عودى فابعثى على هذا العالم الحائر شعاع الإيمان ، لعله يمحو ظلام المادية من النفوس ويوقظ سمو المبادىء التى جاء بها الإسلام .

يا رحمة السماء ، مدى إلى قلوبنا من فجر الإسلام ذلك الشعاع الذى بنى مدنية الإسلام ، فالإيمان وحده هو الذى يعيد للمسلمين مجدهم .

يا سلاح الإيمان ، فى مصنعك أنت وجدت المعجزة الأولى التى فتح بها العرب العالم ، فهلا فزعت الأمة العربية إلى مصنعك تأخذ منه قوتها فتعود اليها المعجزة .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ان كتاب الله هو مصنع الإيمان الذى تستمد منه القوى وتوجد المعجزات ، فمتى يهرع المسلمون إليه ليفتتحوا عهداً جديداً وليعبئوا جيلا جديداً وليخلقوا العالم خلقاً جديداً ينادى فى الوجود :

إلى كتاب الله ، إلى كتاب الله ، فهو سلاح من لا سلاح له .

ذم التنافس فيما يفنى

قال الفارابى :

ينافسُ هـذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا فماذا التزاحمُ فى المركز

مكتبتنا العربية

أى مجتمع نعيش فيه

لفضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يهدف المجتمع فى هذه الحقبة من الزمن إلى الجرى وراء المادة ، لا يثنيه عنها ثان من تعاليم دينية أو مقاييس خلقية أو اعتبارات اجتماعية ، وكل ما وقف فى طريقه فى نظره إنما هى رجعية بغيضة إلى نفسه، وقوانين جائرة ليس لها من مبرر ، حتى التوى الطريق على الكل وضاعت معايير الأشياء ، وانتهكت تعاليم الدين وابتذلت الكرامة وتحللت الأخلاق ، وصار المجتمع يجرى وراء هذه المادية العاتية التى ستودى به إلى كوارث لا قبل له باحتمال عواقبها .

ولو رجعنا إلى الوراء قليلا ، ونظرنا إلى ما كان عليه المجتمع قبل عصر النبوة لتساوى العهدان . فالقوى اليوم هو الأمثل لدى الناس جميعاً ، يرهبون جانبه ، ويقضون حوائجه ، ويحسبون له ألف حساب وحساب ، من تقدير وتقديس ، لأن بيده عصب الحياة ، وإكسير الوجود ، والجالب للسعادة وهو المال .

أما الأخلاق ، أما الكرامة . فهى ألفاظ وضعها اللغويون لغير هذا العصر ، أو هى من التراث العتيق البالى ، والذى يعد المتمسك به من الجامدين . فالإباحية المطلقة هى حضارة العصر وقوام الوجود ، وهى المدنية الحقة التى يسعى لها الكل ويهدف إليها الجميع ، ونظرة واحدة إلى حفلات السادة الكبار ترينا مبلغ ما وصل إليه المجتمع فى زيه ولبسه وتصرفه وابتكاراته ، فعقود الزهر يفخر بلبسها السيد السند وفى فمه زمارة وعلى رأسه طرطور وبجواره حواء تكشف عن مفاتنها يتقارعان كؤوس الطلا ، ثم يقومون إلى حلق الرقص ، كأن بهم مس من الجن من بكور الليل إلى انبثاق الصبح ، يهيمون فى خيالهم ويسبحون فى مجونهم ، وهذا هو مجتمعهم عليه يلتقون وعنه ينصرفون ، لا وازغ من ضمير ولا دافع من خلق ، والويل كل الويل لمن ينقد أعمالهم أو يبدى ملاحظة على سيرهم وسلوكهم ، والأدهى من ذلك

مكتبتنا العربية

أن تنشر صورهم وهم على هـذا الوضع المزرى بالأخلاق ، فأى مجتمع هذا الذى نعيش فيه ، وأى خلق يكون مقياساً لهذا العصر ؟

والله إنها للفوضى التى تدرك الأمم فى أخريات وجودها ، وعصر تحللها ، وانقراضها كما يحدثنا التاريخ .

وبدهى أن تلك الحروب الطاحنة التى تشنها الدول على بعضها، وتلك الاعتمادات الضخمة التى ترصدها ، لها أثر من آثار هذه الأنانية المادية ، ومن الغريب أن هذه كلها لو وجهت إلى التعمير والإصلاح لنال العالم كله منها الخير العميم .

ولكن أين التفكير السليم ، بل أين المجتمع المستقيم حتى يعمل الكل لما فيه إسعاد البشرية .

أيها المصلحون : إن الطريق السوى هو التدين الصحيح ،ولن يصلح هذا المجتمع إلا بما صلح به أوله .

تقوى واستقامة يعمل لها الجميع ، ويسعى لها الناس عن يقين ثابت وإيمان قوى وفكر متين . إن هذه الحياة التى نحياها مجون ما وراءه مجون،نهايتها الجنون ، وغضب يصيب الأفراد، وينصب على المجموع « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

فإلى القادة والزعماء ، إلى السادة والرؤساء : أوجه حديثى : عليكم وزر ما وصلت إليه الحالة العامة من انهيار . لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأفيقوا من سباتكم واصحوا من غفلتكم واتقوا الله فى دينكم وفى قدسيته ، فقد طمت البلوى وعمت الفوضى، وهذا التحلل الخلقى ستكونون فى النهاية أول ضحاياه .

واعلموا أنه لا عز لكم فى سيادة مشبوبة بدم الأبرياء ، ولا غنى لكم عن تعاليم السماء لكبح جماح المبادىء الهدامة التى نخشى أن تجتاح كل الحصون الخلقية ، والتعاليم السماوية .

أما المال : فهو ظل زائل لا يغنى إذا حزب الأمر واشتد الهول ، فحصنوا أنفسكم بالأخلاق ، وحاربوها بالبذل والإنفاق « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والله أكرم مسئول أن يوفق الجميع لما يعود على المجتمع بالنفع العميم والخير الكثير إنه ولى الهداية والتوفيق .

مكتبتنا العربية

من نوادر المخطوطات

شرح ابن بطال على البخارى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير المكتبة الأزهرية

من كتب الشريعة الإسلامية التى حظيت بالقبول ، ونالت من عناية العلماء واهتمامهم ، كتاب « الجامع الصحيح » للامام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، فقد أقبل العلماء عليه بالدراسة والبحث ، والاستفادة والشرح والتعليق ، حتى بلغت المؤلفات فيه من نواحيه المختلفة بضع عشرات ، وشرح شروحاً موجزة ومطولة يبلغ بعضها نيفاً وعشرين مجلدا ، ومن أطول شروحه شرح العلامة العينى .

ولم يحظ « الجامع الصحيح » للبخارى بذلك لجلال موضوعه « وهو الأحاديث النبوية الصحيحة » فحسب ، ولكنه نال ذلك لثقة جامعه وأمانته ، وحسن ضبطه ، وشدة تحريه ، وتحرجه ، حتى أصبح فى مكان القداسة من نفوس المسلمين ، بعد كتاب الله تعالى .

وقد شرح جامع البخارى شروحا كثيرة ، بعضها مشهور متداول ، وبعضها عفى عليه الزمن فيما عفى ، ومن أشهر شروحه وأقدمها ، شرح ابن بطال عليه ، وربما كان هذا الشرح أساس شروحه ، فكثيراً ما يعتمد عليه الشارحون وينقلون عنه .

وكان علماء الحديث مشوقين إلى معرفته والاطلاع عليه ، والوقوف على طريقة تأليفه ، ومنهاج البحث فيه ، وكان الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث الاسلامى ، ولكن الحظ السعيد قد أظفر به المكتبة الأزهرية ، فأهدى إليها أخيراً ضمن مكتبة المغفور له الشيخ محمد الأمير غفر الله له وأجزل مثوبته ، إلا أن سرورنا به لم يتم ، فقد تبين أنه ينقصه أواخر الجزء الأول والجزء الثانى .

وابن بطال هذا هو أبو الحسن على بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبى يعرف باللجّام ، الامام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه ، روى عن ابن أبى صفرة والشفنادى والقاضى يونس وغيرهم ، وأخذ عنه جماعة ، ألف شرحه المعروف على البخارى والاعتصام فى الحديث وتوفى سنة ٤٤٤ هـ أو سنة ٤٤٩ هـ .

مكتبتنا العربية

وشرحه هذا يقع فى أربعة مجلدات بالمكتبة ، منها ثلاثة فقط ، الأول وبآخره نقص ، والمجلدان الثالث والرابع وهما بقلم معتاد وبخط واحد ، هو خط على ابن عمر عبد الله الامام ، فرغ منهما سنة ٧٨٠ هـ لجامع الخطبة .

وعدد أوراق المجلد الأول ٣٥٣ ورقة ، والثالث ٣٨٧ ، والرابع ٣٧٨ ، ومسطرتها كلها ٢٥ سطراً ، وعدد كلمات كل سطر تتراوح بين ١٥ ، ١٨ كلمة ، ومقاسها ٢٧ × ٢٠ ، وعنوان كل جزء بأوله بالمداد الأزرق فى حلية ذهبية أنيقة ، وعناوين الكتب والأبواب فى الكتاب جميعه بالمداد الأحمر ، والكتاب بحالة حسنة تمكن من الانتفاع به ، وما به من هنات لا تمس موضوعه .

ويبتدىء الجزء الأول بأول الشرح وينتهى فى أثناء باب زيارة القبور ويبتدىء الثالث بكتاب الأضاحى ، وينتهى بباب الطلاق ، ويبتدىء الرابع بباب ما يكره من الاحتيال فى الفرار من الطاعون وينتهى بآخر الشرح .

وشرح ابن بطال هذا هو شرح موجز عنى فيه صاحبه بالتنبيه أولا على الصحابى راوى الحديث ، وباستنباط الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، قال صاحب كشف الظنون : « وشرحه البخارى » الإمام أبو الحسن ... وغالبه فى فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب .

وأول الشرح : « باب كيف بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله عز وجل « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » فيه عمر بن الخطاب قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) قال المؤلف قال لى أبو القاسم المهلب بن أبى صفرة رحمه الله معنى هذه الآية : « إن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى سائر الأنبياء عليهم السلام وحى رسالة لا وحى إلهام الخ .

وآخر الشرح : « وقول البخارى ويقال القسط مصدر المقسط فانما أراد المصدر المحذوف الزوائد كالقدر مصدر قدرت إذا حذفت زوائده ، قال الشاعر :

وإن يهلك فذ لك كان قدرى

بمعنى تقديرى محذوف زوائده ورده إلى الأصل ، ومثله كثير ، وإنما يحذف العرب زوائد المصدر لترد الكلام إلى أصله ويدل عليه ، ومصدر القسط الجارى على فعله الأقساط اه .

مكتبتنا العربية

عجالات فى الأدب العربى

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

جرى القلم فى عجالتى السابقة عن ملامح الحوار فى صناعة الأقلام العربية الخالدة .

والحوار فى الأدب الحديث ، عدة لها خطرها لمن يجيدونها ، إذا قدموا الزاد الفنى ، وراحوا من ورائه يرقبون مدى خطواته نحو أعتاب الخلود .

والقدامى من العرب نسجوا حوارهم عفو الخاطر . وجرياً وراء فطرهم ، ولم تكن وراءهم مقاييس الصناعة ، ولا دوافع من (مسرح) ولا مقتضيات (الزمان والمكان) .

وإذا تركنا (الحوار) ، وتلمسنا بذور القصة وفتشنا فى طوايا المؤلفات ، وخبايا المراجع القديمة ، وجدنا العجب العجاب ، ووجدناه عند الأقلام المؤرخة أو الدارسة أو المستعرضة المتعرضة لحيوات الناس ، سواء منهم الشاعر والأديب ، والحاكم من خليفة أو سلطان أو وال ، لا فرق بين الرجل والمرأة .

ووجدنا كتب السيرة ، وكتب التراجم ، وكتب الأدب ، وكتب الأخبار ، تحفل بعلاج البوادر القصصية ، وتجنح إلى جانب الأقصوصة ، يقارب الكاتب من التوفيق ، إذا زحمته الوقائع والحقائق .

وفى أكثر الكتب اصابة عين التوفيق والاجادة بما ينال رضا من يلتمسون تطبيق منطق التماس المحدث ، وقواعد واضع الأقصوصة فى عصرنا الحاضر .

وظاهرة لا يفوتنى أن أقف عندها ، وهى الإمعان وراء المصارحة الخالصة والصدق الواقع ، والتحليل النفسى للأشخاص والجماعات ، وحتى التعابير الموجزة والتشابيه المكتنزة ، تطوف كالقوارير المحشودة العامرة بالنفحات النفسية ، والعواطف النابضة بالحيوية المعبرة دون أن تنقص شيئاً ، إذا تأمل القارىء وأنعم المتأمل .

... الإمام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه ، روى عن ابن ابى صفره

مكتبتنا العربية

وكثير من الناس يعيبون على بعض القدامى كثرة استطرادهم . وعندى أن الاستطراد يعد ذخرا أدبيا ، لأن المؤرخ حين يتعرض لحياة خليفة مثلا ، ثم يتوقف فجأة عن السرد التاريخى ، ويبدأ فى طرفة أو رواية حديث أدبى ، ثم ينقل نصا أدبياً منظوماً أو منثوراً ، وبعد ذلك يعود إلى مرحمه التاريخى أو العلمى - حين يصنع هذا لا يبعد بالمؤرخ إلا بمقدار ما يمتع الأديب ، ولا يمتع الأديب إلا على أساس رسم المناثر الموضحة ، والمعالم الشارحة مما يُستخلَص منه روائح الأحداث السارة أو الضارة ، والمنابع التى روت الثمرائح ، وهزت العواطف فأثمرت العصارات التى حملت الينا فى بوتقات صهرت موادها ، فتماسكت سبائكها ، وراقت قلائدها ، وازّين بها جيد الأدب .

ومهما قيل فى استطراد المؤلف القديم ، فإن الذين تخصصوا وخلصوا فنون الأدب إلى مناهج متآخذة ، ووشائج متآخية ، لم يجدوا من المراجع . أوفى من الأقلام المستطردة ، وأخيراً أشهد أن فى بعض الإطنابات من القمم التى تعد مستقلة فى القصة أو الأقصوصة .

والضائقون بالكتب (المستطردة) لا أجدهم الآن على صواب ، لأن لذة التنقل لا تعوض عند من يريد أن يلون زاده وغذاء عقله وعاطفته .

ولعل الدليل المقنع : كتاب (الأغانى) إذا وضعناه بجانب مهذب الأغانى .

نعم ونعم ، إذا قضيت ساعة مع أبى الفرج ، ورحت تقلب عينيك بين أقاصيصه وطرفه ودعاباته ومقطوعاته ، ثم أخذ بيدك إلى مجلس شاعر أو مجلس خليفة ، ثم عدا بك إلى قصيد أو مقطوعة ، وكشف لك عن صوت يتعلق بأصدائه ، ويحلق مع شاعر آخر أو جارية أديبة أخرى ، رأيت معه نفسك وقد هزتها النشوة .

فإن أردت أن توجز الوقت والتمست مهذب الأغانى ، طالعتك الجهامة ، وبدهك الجفاف ، وفقدت الطرافة ، وعدت تقلب ناظريك بين عصف مجموع ، لا تلبث إلا ريثما تعود إلى متاع الأغانى ، كما صنع الأصفهانى .

* * *

ولا يشك قارىء فى أننى أعنى الاستطراد عند القرائح الخالدة قبل القرن الرابع الهجرى . وسيدهم غير مدافع (الجاحظ) .

مكتبتنا العربية

وبعد أن ظفرت المكتبة العربية (بألف ليلة) ، ثم بالقصص الشعبي فى العصور المتأخرة ، أجدنى أمام فن قصصى مستقل له خصائصه المتفرده ، وله ظلاله وآثاره فى الأقلام والقراء .

وحظى فى هذه العجالة . أن أعود بالقارىء إلى أن مكتبتنا العربية بدأت تجمع على عواتقها مصنفات لأقلام زاولت وعالجت الأقصوصة ، ومنها من شقت بأسلاتها طريق القصة ، بل وضعت مستقلة أسسها على هدى من الفطرة والطبيعة العربية الخالصة .

وسوف أعود فى عجالة أخرى ، إلى المعالم الأولى ، والمدارج التى اهتزت فيها الباسقات ، وربت فى ربوعها وارفات الأقصوصة ثم القصة .

النحو يرثى

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كان ابن مالك إمام النحو فى عصره ، وألفيته تعتبر صندوق النحو إلى اليوم . ولد سنة (٦٠٠) وتوفى سنة (٦٧٢) هـ فرثاه شرف الدين أحد المستفيدين منه بقصيدة طريفة ألفاظها مستمدة من قواعد النحو ، وهى :

يا شتات الأسماء والأفعال ... بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط ... منه فى الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم بإذن الله ... من غير شبهة أو محال
عدم النعت والتعطف والتو ... كيد مستبدلا من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه ... حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكنة لهمز قضاء ... ورثت طول مدة الانفعال
رفعوه فى نعشه وانتصبنا ... نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه بأعظم ما فعلوه ... وهو عدل معرف بالجمال

إلى آخرها ، وكلها على هذا النمط من استخدام ألفاظ علم النحو ، فى رثاء إمام النحو .

مكتبتنا العربية

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

فى إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

فى هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : فى القرآن الكريم وإعجازه ؛ ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارىء كل ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز ؛ معرفة تامة لا لبس فيها ولا خفاء .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

رأى الوليد بن المغيرة :

١ — روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ؛ فكأنه رقّ له . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ؛ لئلا تأتى محمداً ، لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ؛ قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له ؛ قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ؛ ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه : قال : فدعنى حتى أفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره [١] .

٢ — وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبى صلى الله عليه وسلم :

---

[١] ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ، و١١٧ / ٢ الأتقان للسيوطى ، ٣٥٧ إعجاز القرآن للرافعى

مكتبتنا العربية

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ ما يقول هذا بشر [١] .

٣ — وجاء فى رواية أخرى أن الوليد قال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ، ما هو من كلام الأنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ؛ فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأنّ قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ؛ فقعد إليه حزيناً ، وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ ؛ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؛ وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله [٢] .

٤ — ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه ـ يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ـ رأيا لايكذب بعضكم بعضا ؛ فقالوا : نقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه : قالوا : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته ؛ قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشعر ؛ قالوا : فنقول ساحر ، قال : ماهو بساحر ولا نفثه ولا عقده ؛ قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ؛ وإن أقرب القول إنه ساحر ، وإنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس [٣] فأنزل الله تعالى فيه : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » الآيات [٤] .

٥ — وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة فى القرآن ماقال ، حين جاء إلى

---

[١] ص ٢٢٠ / ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ . [٢] ص ١٥٨ / ٤ الكشاف للزمخشرى .
[٣] ١/٢٢٣ الشفاء ، ٣٥٧و٣٥٨ إعجاز القرآن للرافعى [٤] آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

« المصيطرون » [1] ، كاد قلبي ان يطير ، قال : وذلك اول ما وقر الإسلام فى قلبي [1] ».
مكتبتنا العربية

الرسول ، وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا فى الانقياد ، فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ، حٰم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته » إلى آخر السورة ؛ فقال: إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة [1]

رأي عتبة بن ربيعة :

١ — وروى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى عليّ ؛ فأتاه ، فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت ، فلما بلغ قوله : « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش . فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؛ فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب [2].

٢ — وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمتم أنى لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ؛ ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة [3] ... ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .

الجن تشهد ببلاغة القرآن :

وفى القرآن الكريم : « قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » إلى آخر سورة الجن . وقولهم « عجبا » يفسرها المفسرون ببليغ بديع معجز.

كلام لم ينزل إلا من السماء :

وروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة عن كلام مسيلمة وما كان يدعيه قرآنا ؛ فقصُّوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أى عن ربوبية - فأين كان يذهب بكم [4]

[١] ٣/٢١٨ الطراز فى علوم البلاغة [٢] ٣/٣٨٧ الكشاف ، ٢٣١ و ١/٢٣٢ الشفاء
[٣] ١/٢٢٣ الشفاء [٤] الباقلاني وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرافعي . وكلام مسيلمة تجده فى إعجاز القرآن للباقلاني ، ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلمة (٣/١٧٣)

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

فيرجع ملوكها إلى أحد أبناء سلاطنة « أنجوان » . أما السلطنة الرابعة والأخيرة فهى سلطنة « موهللى » ، وهم شيرازيون أيضا ويرجع تاريخهم إلى عام ٨٣٠ م .

ويعتبر المسلمون الصقالاڤيون ، أقل مسلمى الجزيرة تمسكا بشعائر دينهم فهم مثلا يحتفلون برمضان ، وإن كانوا لا يصومونه ، كما أنهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير .

أما مسلمو الجنوب ، فهم حسب أساطيرهم قد قدموا من مكة المكرمة ، وما زالوا يحتفظون بالحروف الأبجدية العربية ، والعربية لغتهم المقدسة ، ولديهم مصاحفهم ، وكتبهم العربية فى الطب والفلك يتوارثونها جيلا عن جيل .

وحوالى سنة ١٩٢٤ رأى بعض الهنود ، وعلى الأخص « الأحمدية » منهم . فى هذه البلاد أرضاً بكراً ، فأخذوا ينشرون تعاليمهم فيها بنجاح كبير ، وأخذ المسلمون من زنجبار وبلاد العرب يجوبون أنحاء الجزيرة يفقهون المسلمين أمور دينهم ، فإذا بالقوم يفيقون من سبات طويل ، وإذا بالإسلام يبدأ من جديد يدخل القلوب الغافلة عن ذكر الله ، وأهم مركز إسلامى فى الجزيرة يوجد الآن فى مدينة ماجمجا Majemga .

هذه خطوط رسمنا بها حال الإسلام والمسلمين بالجزيرة ، وبقى أن نبين أن هذه الأرض ، التى سكنها المسلمون ، وآمنوا فيها بالدين الحنيف ، كانت أبدا هدفا لحملات المبشرين المسيحيين ، يحاولون ثنى الناس عن دينهم ودين آبائهم القويم ، ويغرونهم بشتى الطرق والوسائل لترك الإسلام واعتناق النصرانية . وإن أمام البعثة الأزهرية التى ستجوب هذه البلاد ، لمشاكل جمة شائكة ، وإنى لأشفق عليها من الآن .

كتب « روبرت جريفيث » فى كتابه « مدغشقر »[1] . يقول : « علينا أن نعلم أن الإسلام ليس خطوة نحو المسيحية ، وإنما هو منافسها الأكبر والعقبة الكؤود فى سبيل انتشارها ، ولكنى أضيف أن الإسلام فى هذه الأنحاء دين شكلى فهو خليط من « المحمدية » والخرافات الوثنية » .

---

[1] انظر Robert Griffith : Madagasdar - London 1919.
Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar- 1932
والمصادر السابقة

مكتبتنا العربية

وجاء فى تقرير إحدى البعثات المسيحية سنة ١٩١٣ . « إننا نجد أن معظم القرى يتكون نصفها من مسلمين والنصف الآخر من مسيحيين ، وإن نحن تذكرنا تجاربنا السابقة . لعرفنا أنه من الصعب أن ندخل المسيح فى قلوب هؤلاء القوم بعد أن سيطر عليهم الإسلام ، ولكن كان من حسن طالعنا ، أن قوات مسيحية تحتل هذه البلاد »[١] .

وتبذل هذه البعثات التبشيرية ما يسعها وبشتى الطرق لنشر النصرانية وإطفاء نور الله ، ولكن المسلمين هنالك « يغلقون مساجدهم عليهم ، ويحافظون على لغتهم ولهم مدارسهم الخاصة ، ويعملون ما فى استطاعتهم ليتجنبوا الاتصال بالمسيحيين » .

وهذا القول يكتبه هنرى روسيون سنة ١٩٢٢[٢]. فى حسرة ومرارة ، ولكن هذه الحسرة وهذه المرارة ، بل لنقول هذه الخيبة التى منى بها المبشرون المسيحيون هى التى يجب أن تدفعنا إلى الإسراع لإنقاذ هـــذا الشعب الإسلامى ، فإنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فالمستعمر يعمل على وأد لغتهم ونشر لغته ، وعلى غلق مدارسهم وفتح مدارسه ، وعلى هدم مساجدهم وإنشاء كنائسه ، ويتبع معهم كل سبيل لينسيهم ماضيهم المجيد ، ويحيلهم إلى أمة من العبيد لا ترى إلا بعين المستعمر ولا تسمع إلا بأذنه ، ولا تتصرف إلا بتفكيره .

* * *

والكلمة الأخيرة نقولها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فهو المسئول عن رسالة الأزهر ، وليست رسالته معهدا فى مصر يفتح ، ولا إشرافا على الدين فى مصر ، لا ، إنما رسالة الأزهر الحقيقية هى رعاية المسلمين فى خارج البلدان الإسلامية فى غرب أفريقيا وشرقها وجنوبها ، وفى جميع البلاد التى لا تتكلم العربيـة . فإن الجهل بلغة القرآن مكن للمستعمر — المتعصب لدينه دائماً — أن يحول القوم عن عقيدتهم ، وأن ينشر فيهم الانحلال الخلقى والدينى ، حتى إذا تم له ما أراد ، سهل عليه نقلهم من دين إلى دين ، وأن يقيمهم تحت سلطانه إلى ما شاء الله .

---

[١] Report of Deputation to Madagascar - London Missionary Society - 1913.

[٢] هنرى روسيون فى مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٢٢

مكتبتنا العربية

وَاقِعَةُ الجَمَلِ

لحضرة الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

تعتبر هذه الواقعة ، استمراراً للثوران البركانى ، الذى أودى بحياة عثمان رضى الله عنه ، والذى يعتبر شيئاً جديداً فى صفحة التاريخ الإسلامى ، من حيث اصطراع القوم ، حول الخلافة والمناصب . فهذه الواقعة ثمرة فجة من ثمار هذه الفتنة الطائشة ، وهى بدورها ، ذات أثر بعيد فيما تمثل من الأحداث بعد ذلك ، على مسرح التاريخ الإسلامى .

برمت السيدة عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، ساعة أن اشتد الحصار على الخليفة عثمان ، فتركتها تغلى مراجلها ، لتكون بمنأى عن أحداث الفتنة ومحتملاتها البغيضة وقصدت إلى مكة ، وبينا هى راجعة بعد ذلك إلى المدينة ، إذ « بعبيد الله بن أبى سلمة » وهو من أخوالها ، يخبرها بأن عثمان قد قتل ، وأن الناس قد بايعوا علياً ، فهالها الخبر ، وقالت : « ما أظن ذلك تاماً ، ردونى » ، وانصرفت عائدة إلى مكة وهى تقول « قتل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه » فقال لها « عبيد الله » ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين ، اقتلوا نعثلا فقد كفر » قالت « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول » فقال لها ابن أبى سلمة :

منك البـــداء ، ومنك الغير ... منك الرياح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا : أنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتـــله ... وقاتله عندنا من أمر الخ

دخلت السيدة عائشة رضى الله عنها مكة ، وهناك أخذت تستنفر الهمم للأخذ بثأر عثمان ، واجتمع حولها خلق كثير ، منهم « عبد الله بن عامر الحضرمى » أمير مكة من قبل عثمان و « سعيد بن العاص » و « الوليد بن عقبة » و « عبد الله بن عامر » و « يعلى بن أمية » و « طلحة » و « الزبير » . استقر رأى هذه الجماعة على المسير

مكتبتنا العربية

إلى البصرة ، وأعدوا عدتهم لملاقاة جند على ، وأرادت حفصة متابعة عائشة ، فثناها عن ذلك أخوها « عبد الله بن عمر » .

ويجمل بنا فى هذا المقام ، أن نورد رسالة من « أم سلمة » زوجة النبى عليه السلام ، إلى السيدة عائشة تثنيها عن عزمها ، وذلك لقيمة هذه الرسالة من الناحية البلاغية ، قالت أم سلمة « من أم سلمة زوج النبى إلى عائشة أم المؤمنين ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد هتكت سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حجاب مضروب على حرمته ، قد جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها ، وسكر خفارتك فلا تبتذليها ، والله من وراء هذه الأمة ، لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة فى الدين ، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن صدع ، جهاد النساء غض الأطراف ، وضم الذيول ، وقصر المواده ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّة قعوداً من منهل إلى منهل ، وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم لو قيل لى : يا أم سلمة أدخلى الجنة ، لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاتكة حجاباً ضربه على ، فاجعلته سترك ، وقاعة البيت حصنك فانك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصحهم ، ولو أنى حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنهشت نهش الرقشاء المطرقة والسلام » .

مضت السيدة عائشة إلى غايتها ، ولم تثنها هذه الرسالة عن عزمها ، وأعطى « يعلى بن أمية » عائشة الجمل المسمى « عسكر » ومضى القوم من ورائها قاصدين البصرة ، ومروا فى طريقهم بمكان يسمى « الحوأب » فنبحتهم كلابه . فقالت عائشة : أى ماء ؟ فقيل : هذا الماء الحوأب ، فصرخت عائشة وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعنده نساؤه « ليت شعرى ينبحكن كلاب الحوأب » ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت : ردونى ، أنا والله صاحبة ماء الحوأب ، غير أن القوم ما زالوا بها حتى مضت معهم إلى الغاية المقدورة . ولما أشرف القوم على البصرة ، أرسلت رضى الله عنها تستميل بعض وجوهها ، ولما علم « عثمان بن حنيف » عامل البصرة من قبل على بمقدم القوم ، أرسل إليهم « أبا الأسود الدؤلى » و « عمران بن حصين » يسألانهم

مكتبتنا العربية

فيما قدموا ؟ فسألا عائشة رضى الله عنها فأجابت أنها قادمة فى الطلب بدم عثمان ، والثأر من قاتليه ، الذين استحلوا حرمة البلد الحرام ، والشهر الحرام ، فسفكوا الدم الحرام ، واستباحوا المال الحرام . وكذلك سألا طلحة : ألم تبايع علياً ؟ فقال : بايعت واللج على عنق ، وسألا الزبير فقال كما قال طلحة . ورجع الرسولان إلى « عثمان بن حنيف » وابتدره « أبو الأسود الدؤلى » قائلا :

يا ابن حنيف قد أتيت فأنفـــر وطاعن القـــوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئما ، وشمـــر

ودار قتال مبدئى بين الطرفين ، راح ضحيته « عثمان بن حنيف » و « حكيم بن جبلة » . ونزل « علىّ » « بذى قار » فى طريقه إلى البصرة ، وأرسل من يندب له أهل الكوفة ، فكانت الجنود توافيه بذى قار ، على أهبة الاستعداد للمسير إلى البصرة ، وبلغ ما اجتمع له من الجند ١٢٠٠٠ ، فجعلهم أسباعاً ، على كل سبع رئيس .

وأشفق على من هول ما قد يتمخض عنه لقاء الفريقين من مصائب وأهوال ، فأحب أن يبتدىء الأمر بالتفاهم مع الفريق الآخر ، لعل ذلك يحسم الخلف ويحقن الدماء ، فلما انتظم عقد رجاله بذى قار ، دعا على إليه « القعقاع بن عمرو » وكلفه بالذهاب إلى البصرة فى هذه المهمة . فسار إليها ، وحذر القوم عاقبة الخلاف ، وأنه مطوح بالأمة إلى المهالك ، وقال لهم فيما قال : لقد قتلتم بثأر عثمان ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف من قومهم ، فماذا أنتم صانعون غداً إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم ؟ إن الخير كل الخير فى أن تقنعوا بما أخذتم من ثأر عثمان ، وترجعوا إلى الجماعة ، وتبايعوا علياً ، فانه أصلح للأمر . رضى القوم بالصلح وكاد الخلاف أن ينحسم ، وكان أشياع طلحة والزبير بالفرضة من البصرة ، وكان أشياع على بالزاوية منها ، بعد أن رحلوا عن ذى قار ، أى أن الفريقين أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الالتحام ؛ وخرج على ، كما خرج الزبير وطلحة ، كل يبغى لقاء صاحبه ، والتقوا عند مكان يقال له « الخريبة » ، ولما قيل لعلى أن ذاك هو الزبير قال : أما أنه أحرى الرجلين أن ذكّر بالله أن يذكر ، وسألهما على بأى حق يستحلان دمه وقتاله وهم جميعاً أخوة فى الإسلام ، فاتهمه طلحة بالتأليب على عثمان فقال على : لعن الله قتلة عثمان . ثم قال للزبير ، أتذكر يا زبير يوم مررت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بنى غانم فقال لك:

مكتبتنا العربية

« ولتقاتلنه وأنت له ظالم » فقال الزبير : اللهم نعم ، لو ذكرته ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً . غير أن « عبد الله بن الزبير » استطاع أن يحمل أباه على مقاتلة على .

ولما كان على رضى الله عنه حريصاً كل الحرص ، على بذل أكبر جهوده لتجنب القتال ، وانهاء الأمر بالحسنى ، فقد انتدب من لدنه « عبد الله بن عباس » كما انتدب طلحة والزبير من لدنهما « محمد بن طلحة » . وأخيراً قر قرار المندوبين على حسم الخلاف ، وانهاء الأمر بين الفريقين بالحسنى ، وطرب لذلك كل حريص على خير المسلمين ، ما عدا أولئك الذين سعوا فى قتل عثمان رضى الله عنه ، فقد خافوا مما عساه يحل بهم إذا ما هدأت الفتنة ، ولقد استطاع هؤلاء أن يوغروا صدر الفريقين على السواء ، فبات كل فريق يتربص بصاحبه ، ويتحفز للقائه .

توافق الجمعان للقتال ، وخرجت عائشة رضى الله عنها ، فى هودج جلل بالحديد ، وثار المعسكران يقتتلان ، وحمى وطيس القتال ، ورحى الحرب تدور مرة على الكوفيين وأخرى على البصريين ، ولقد قيل إنه قد قتل يوم الجمل سبعون قرشياً ممن أخذوا بالخطام ، كما يروى أن « مروان بن الحكم » قد قطع فى دفاعه عن الجمل أكثر من عشرين يداً من أهل الكوفة ، وكان من بين ضحايا الجمل « محمد بن طلحة » من خير أبناء الصحابة ورعاً وتقوى وزهداً وعبادة ، كما كان « أبو طلحة بن عبيد الله » رضى الله عنه أحد ضحايا الخطام . ولما تزايد عدد الضحايا من الفريقين ، أشار على بعقر الجمل فتقدم إليه « بجير بن دلجة الضبي » واجتث ساقه ، فهوى ، وحمل أتباع على هودج عائشة ، إلى إحدى دور البصرة ، تحت رعاية على وأصحابه ، وانتهت المعركة بهزيمة أهل البصرة . ولقد عاجل « عمرو بن جرموز » الزبير بن العوام فقتله بوادى السباع وهو عائد بعد انتهاء القتال ، ولقد بشر على عمراً بالنار ساعة علم بمقتل الزبير على يديه .

ولقد نكب الإسلام ، فى هذه الواقعة ، نكبة كبرى إذ قتل فيها عدد كبير من أفاضل الصحابة والتابعين . وغداة الموقعة جاء على إلى عائشة وقال لها « غفر الله لك » فقالت « ولك ، ما أردت إلا الإصلاح » وظلت عائشة بالبصرة حتى موسم الحج ، فجهزها على إلى المدينة فى ٢٠ أو ٤٠ امرأة من ذوات الشرف ، وجهز معها أخاها محمداً ، وشيعها هو وأولاده رضى الله عنهم أجمعين .

مكتبتنا العربية

بقى من أمر هذه الواقعة ، أن نعلق عليها تعليقاً تاريخياً : فالمطالبة بدم عثمان تكون من حق الإمام لا من حق الأفراد ، فكان الأحرى بفريق عائشة أن يتريث حتى يرتضى المسلمون خليفة عليهم ، يقيم الحدود ويأخذ برقاب المجرمين ، وكان لوجود نفر ممن اشتركوا فى دم عثمان كابن سبأ فى جيش على ، أبلغ أثر فى استطارة الشر ، وعدم الانصياع لصوت الضمير والعقل ، وتعتبر هذه الواقعة فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب السياسية ، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاظم الداء ، إذ انقسم المسلمون فيها على أنفسهم : عرب البادية والكوفة ينصرون علياً ، وعرب الحجاز والبصرة ينصرون عائشة ، ولذا تعتبر الواقعة انتصاراً للفريق الأول على الفريق الثانى .

وإذا كانت نهاية الموقعة إنتصاراً حربياً لعلى ، فهى من الوجهة السياسية ليست كذلك ، فقد شغلته هذه الواقعة عن خصمه الأكبر « معاوية بن أبى سفيان » الذى انفرد بالشام وراح يحكمه بأمره ، ويدبره على أحكم وجه ، استعداداً للصراع المقبل بينه وبين على . ثم كان من نتائج هذه الواقعة أن سخط كثير من العرب على قريش ورجالها لأنهم أوردوا أبناءهم موارد التهلكة . هذا وإنى أعتقد أن التبعة الكبرى فى هذه المعركة الدامية ، التى ذهب ضحيتها نفر من جلة الصحابة والتابعين . تقع على عاتق عائشة ، فانى أقطع بأنه لولا وجود عائشة فى موقعة الجمل ، ما اجتمع لأعداء على شمل ولا قامت لهم قائمة ، إذ ألهبت النفوس بخطبها ، وحركت المشاعر بوجودها ، حتى بلغ القتال أشده ، وأنتج ما أنتج من المصائب والأهوال ، وكان الأولى بأم المؤمنين أن تقف من الفريقين موقف الناصح المرشد ، حتى تزيل ما فى النفوس من تحفز وتحمس للقتال ، وتسعى جهدها اتأليف القلوب حول الوحدة الإسلامية بالطرق السلمية ، لا باراقة الدماء ، والوقوف موقف المناصر لحزب والمناهض لآخر . والناظر لتطور الحوادث يرى أن هذه الواقعة قد قوت من حجة القائلين بالأخذ بأثر عثمان ، لأن علياً قد آوى قتلته فى جنده ، فأضعف بذلك مركزه ، وقوى بالتالى مركز معاوية ، ثم أن عاصمة الاسلام قد جافت من بعد هذه الواقعة « المدينة » مطلقاً إلى غيرها من المدن ، وبالاضافة إلى كل ما سبق ، قد أتاحت هذه الواقعة للمنافقين جواً مناسباً لبذر بذور الخلاف بين المسلمين .

مكتبتنا العربية

أسلحة القتال عند المسلمين

لحضرة الأستاذ هاشم محمد ابراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

— ٢ —

تكلمنا فى العدد الماضى عن بعض أسلحة المسلمين البرية المباشرة وسنحاول هنا الإشارة إلى بعض أسلحة أخرى غير مباشرة لا تقل فتكا وتدميراً عن الأسلحة الأخرى ، بل تمتاز عنها بسهولة الاستعمال وقلة ضحايا الجنود التى تستعملها ، ولو أن بعض هذه الأسلحة كان معروفا ، إلا أن المسلمين أدخلوا عليها من التحسينات ما جعل لها قيمة فى حروب العصور الوسطى لا يستهان بها :

فمثلا استعمل المسلمون القذائف الملتهبة التى كانت تسمى النار الاغريقية وهى عبارة عن مخلوط كيمائى به ملح البارود الذى يشتعل عند اصطدام القذيفة بأجسام صلبة . وقد اخترع هذا السلاح مهندس سورى ، ثم باعه للدولة البيزنطية التى كافأته بسخاء ، وعندما هاجمت البحرية الإسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لم ينقذها من السقوط فى يد العرب إلا النار الاغريقية التى مزقت الأساطيل الإسلامية ، فكان ذلك درساً قاسياً وسلاحا نافعاً أخذه العرب عن البيزنطيين ضمن أسلحة أخرى .

ومن الطريف أن نصف بعض الأسلحة الغير المباشرة التى ابتدعها المماليك بمصر خاصة أيام الظاهر بيبرس فى حربه مع المغول والصليبيين ، وقد كانت هذه الأسلحة الحربية الاقتصادية فتاكة ولا تحتاج إلى تضحيات جنود كثيرين ، وكان الغرض منها هو إحداث كل ما يمكن من تخريب ، وإشعال الحرائق فى أطراف بلاد الأعداء ، والثابت فى تاريخ دولة المماليك أنه كان بالجيش فئة من فئات المماليك تسمى بالمحرقات ، ويظهر أنها كانت هيئة منظمة كتنظيم البريد ، وربما كانت فرعا من البريد ، وكانت طريقة هذه الفئة أن تربط بذيول الثعالب خرقا مبللة بمواد ملتهبة ثم يشعلون تلك الخرق ويتركون الثعالب تنطلق نحو بلاد العدو . ولدولة

مكتبتنا العربية

المماليك أيضاً اختراعات أخرى كثيرة منها مثلا : اختراع خنق القلاع المحصورة بأنواع من الغازات ، وفكرة إحداث ثقوب بحوائط المدن الحصينة المستعصية الفتح ثم حشو هذه الثغوب بمواد ملتهبة ، وبهذه الوسائل وغيرها انتصر المسلمون على المغول كما انتصروا على الصليبيين فى عدة مواقع حاسمة ، وقد استخدم السلطان بيبرس وغيره من سلاطين المماليك فى حروبه الدبابات ذات العجل والزحافات والأبراج المتحركة والقطاطيع التى كانت تهدم بها أسوار القلاع .

أما أسلحة القتال البحرية عند المسلمين : قبل الإسلام وفى صدره ، فلم تكن موضع عناية . وقد علل ابن خلدون فى مقدمته [ص ٢٢٠] سبب امتناع العرب فى أول عهدهم عن ركوب البحر « أنهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والأفرنجة لممارستهم أحواله . . . ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم . . . أنشأوا السفن والشوانى وشحنوا الأساطيل بالرجال . . »

ويرجع الفضل فى إنشاء الأسطول الإسلامى الأول إلى عثمان بن عفان ، عندما ألح عليه معاوية ، واليه بالشام ، بضرورة غزو بلاد الروم بحراً ، فجهز أول أسطول للمسلمين ، وقاده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والى مصر من قبل عثمان ، وحارب به أمبراطور الروم قسطنطين فى عرض البحر الأبيض وانتصر عليه فى واقعة « ذات السوارى » ، مع أن عدد سفن المسلمين كان يقرب من المائتى سفينة وقفت أمام ألف سفينة للعدو .

وعنى معاوية مؤسس الدولة الأموية بإنشاء السفن الحربية ، فأعد لغزو الدولة البيزنطية ـ التى كثيراً ما أغارت على البلاد الإسلامية ـ ما يسمى بالشوانى والصوائف ،وقد بلغ عدد سفنه ألفاً وسبعمائة سفينة .

ولما كانت مصر من البلاد التى تعرضت للغزو البيزنطى ، فقد اهتم أمراؤها ببناء السفن ، وأنشئت دار لبنائها فى جزيرة الروضة (الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٩٠) واستمرت البحرية الإسلامية فى عظمتها طوال العصر الأموى وبداية العصر العباسى ، وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى الأسطول البحرى لصد غارات

مكتبتنا العربية

البيزنطيين على الشام ، ومن ثم أنشأ المعز لدين الله دارا لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد على رأسهم رئيس يسمى أمير الجيوش . واشتهرت الروضة والإسكندرية بصناعة السفن الحربية .

ولما انتقل الحكم فى مصر إلى صلاح الدين الأيوبى ، اهتم بالأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانى الإسلامية ، وقد أنشأ ديواناً خاصاً عرف باسم « ديوان الأسطول » ، وكان القائد يسمى أمير الماء أو أمير البحر .

وازدادت العناية بالأساطيل البحرية أيام المماليك ، خاصة فى عهد السلطان بيبرس ، فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولا قوياً مكوناً من ستين مركباً جهزها بالآلات الحربية والرجال ، وكانت هذه السفن مقسمة إلى أنواع منها الشوانى وهى المراكب المعدة للجهاد فى البحر ، والحراريق وهى سفن فيها قاذفات نيران يرمى بها العدو فى البحر ، والطرائد وهى سفن صغيرة سريعة ، وهى الألفاظ المستعمله اليوم للمدمرات والطرادات والبوارج .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب نبغوا وأصبحوا سادة البحار بفضل شجاعتهم ، وقوة احتمالهم للشدائد والأهوال ، فأصبحوا أساتذة أوربا ، والدليل على ذلك أن بعض الألفاظ البحرية العربية لا تزال مستعملة فى الاصطلاحات البحرية الأوربية فمثلا :

كلمة Arsenal [وبالإيطالية Darsonal] أخذت عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية .

وكلمة Admiral أخذت عن لفظ « أمير البحر » بالعربية ، وكلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » .

ويجب أن لا ننسى أن العرب اهتموا بنظام الجاسوسية فى الحروب ، خاصة أيام الدولة العباسية ، فقد استخدمت النساء والرجال على السواء ، لمعرفة أحوال الأعداء وقواتهم وأسلحتهم ، وكان هؤلاء يرحلون إلى البلاد المعادية ، متنكرين فى أزياء الأطباء والتجار وغيرهم لجمع الأخبار ، وكانت الجاسوسية العباسية على الأخص نشطة إلى حد كبير فى الدولة البيزنطية التى نافست الدولة العربية ، والتى كان الفن الحربى يخرج منها فى الماضى .

مكتبتنا العربية

كيف نقرأ الشعر

بقلم الأستاذ حمزة محمد الشيخ

ليسانسيه فى الأدب الانجليزى

ما زال تعريف الشعر بأنه « حديث الذكريات » ـ لما فيه من إمعان فى البساطة ، وإغراق فى الوضوح ـ أبرز التعريفات جميعاً ، رغم تعددها وكثرتها . ويرمى ذلك التعريف إلى جعل العاطفة واستثارتها ، والفكر وشحذه ، مدار الشعر ، ومجال الشعراء ؛ إذ أن الإنسان قلما يذكر شيئاً لم يستثر شعوره ، أو ينبه خياله ، أو يستنهض عقله . والكلمة الشعرية لا بد أن تصل إلى أغوار الشعور ، لما لها من جرس وتفاعيل Cadence ، ولما يحيط بها دائماً ، من قدرة إيحائية واسعة ، تفتح أمام الفكر آفاقاً فسيحة من المعانى ، ولما تتسم به من جمال فريد وسحر أخاذ .

وفى الحق إن الجهد الفكرى ، الذى نحتاج إليه عند قراءة الشعر ، يناقض تماماً الجهد ، الذى يلزمنا لكى نصل إلى معانى التعبيرات الصوتية الأخرى ، التى لا يتسع مجالها الإيحائى Aura of Suggestion إلا لمعنى واحد ، من بين معانى القاموس اللغوى ، بينما تشغل اللفظة الشعرية مجالا أفسح وأرحب ، تشع فيه معانيها الإيحائية العديدة ، كما تشع الذرة خطوط القوى ، فتحتل الزمان والمكان حواليها . ولعلنا بذلك نستطيع أن نجلو السر الغامض ، الذى يجعل الأسلوب العلمى ، أقرب إلى الفهم والإدراك ، عند القراءة ، أكثر منه عند السماع ، كما يصبح الشعر هو الآخر ـ حين يسلس قياده ، وتواتى قوافيه ـ لغة الإنشاد ، التى تعتمد على الأذن إلى حد بعيد . وفى خلال ذلك يحتاج الشاعر فى تعبيره ـ كما يحتاج الناثر ـ إلى التموجات الموسيقية التى لا مفر من تعاقبها . كلما تعاقبت مراحل الجهد والراحة ، واحدة إثر أخرى ، أو كلما دفعت المناسبة الشاعر إلى زيادة التأكيد لبعض المعانى ، التى تروقه وتهمه أكثر من سواها . ونحن نجد ، فى أنواع الشعر جميعاً ، رابطة قوية ، بين التوقيع الموسيقى ، الذى يخضع لهوى الشاعر فى تقدير

مكتبتنا العربية

الأشياء ، وبين الأوزان الشعرية ، بتفاعيلها المختلفة ، التى استمدت أصولها من تقاليد لغوية قديمة ، خضع لها النظم خلال أزمان طويلة ، ونهج الشعراء على منوالها فى أشعارهم .

أما العلاقة بين الشعر والنثر مهما تغايرت ألوانه ، فهى تشبه ، إلى حد كبير ، العلاقة بين علمى الجبر والحساب ... فالشاعر إنما يعبر عن تجاربه الشخصية أو الخيالية ، بيد أن هذه التجارب لا تستكمل قيمتها وأهميتها ، ما لم تتمثل فى مخيلة القارىء صوراً مفعمة بالحركة والنشاط ، وما لم تلق بأضوائها فوق تجارب القارىء نفسه ، ومعنى ذلك كله ، أن نجاح الشاعر أو فشله إنما يقاس بكثرة المناسبات التى نذكره ونذكر شعره فيها .

وما دمنا قد اصطلحنا على أن الشعر إنما هو « حديث الذكريات » فمن الطبيعى أن نجد سائلا يسأل : وعلام تدور تلك الذكريات ؟ أعلى الحياة تدور ، أم على الموت ؟ أم تعتمد على التعبير عن أغوار الكراهية والخوف ؟ أم تمتد بالوصف لتلك الرغبات العميقة ، التى تراود الناس فى يقظتهم ، وتهفو إليها نفوسهم فى أحلامهم فيتحقق بعضها طوراً ، ويصبح مصدر ابتهاج وإيناس ، ويفشل بعضها طوراً آخر ، فيظل ماثلا للعين ، رمزاً للبؤس والحرمان ؟ أم تصور الحق ، وقد استطال بعنقه فى يأس حارق ، وفى حرقة يائسة ؟ أم تصف الباطل ، ، وقد عم البسيطة فى جرأة طاغية ، وفى طغيان جارف ؟ أم تنتزع حديثها من الأطوار التى تعرض لنا جميعاً ، فتكشف عن الطفولة وبساطتها ، وعن الشباب وثورته ، وعن الكهولة واتزانها ؟

أجل إن « حديث الذكريات » يتناول ذلك كله ، بيد أنه لا يقتصر عليه ، وإنما يتعداه إلى غيره مما نذكره من الأشياء ، بين الفينة والفينة ، مهما كان تافهاً بسيطاً . . وفى الحق أننا نسىء إلى الشعر كثيراً ، ونعوقه عن السريان فى جداوله الأصيلة ، إذا نحن أردنا أن نحبسه على تجاربنا العميقة وحدها ، بحيث لا يتناول غيرها بالوصف والتصوير . . بل إن من أرادوا بالشعر ، من هذه السبيل ، أن يمجدوه ، ويحفظوا له مكانته السامية ، لم ينجحوا إلا فى صد الناس عن الشعر والشعراء ، الذين ملتهم آذانهم ، ومجتهم أسماعهم . . إذ ليس الشعر سوى صورة

مكتبتنا العربية

ناطقة للطبيعة البشرية ، تعكسها بشرها وخيرها ، وتنقلها إلينا بعمقها وضحالتها ، وتعبر لنا عما فيها من ألوان البساطة الخالصة ، والصنعة الجارفة ، وعما يعرض أمام أعيننا من ضروب الذكاء والغباء ، وعما نشهد من صفوف الدنس والعفاف .

وثمة أمر آخر يجعل الشعر ذا مجال فسيح فى أغراضه ومراميه ، وينأى به عن الضيق والتضييق ، الذى يريده له بعض النقاد . . ذلك أنه بالرغم من انتشار التعليم اليوم ، وازدهار الطباعة وذيوعها ، وظهور وسائل التثقيف الجماعية الأخرى ، كالإذاعة اللاسلكية ، والشاشة البيضاء ، والمسرح ، إلا أن الهوة بين الذوق الأدبى الرفيع النابه Highbrow taste ، والذوق الأدبى الخفيض المنقاد Lowbrow taste ما زالت بعيدة ، بل أبعد مما كانت حتى اليوم .

ثم جاء بعد ذلك دور الانقلاب الصناعى ، الذى كان لسائر بلاد العالم فى العصر الحاضر منه نصيب ، فقضى على كثير من الجماعات الزراعية ، بما لها من ثقافات محلية تقليدية ، وأضحى الناس قسمين : فهناك العامل وصاحب العمل من ناحية ، وهناك المساهمون من ناحية أخرى . ولم يجد الأولون فسحة من الوقت ، أو متسعاً من الفراغ ، بعد أن وسعهم العمل ، وشغلهم السعى ، أما الفئة القليلة الأخرى ، فقد اتسع أمامها الفراغ تزجيه أنى شاءت . وجرى الأدب بطبعه كذلك فى شعبتين اثنتين ، تمد إحداهما الفئة الأولى بوسيلة تهرب بها من صخب الحياة ، وضجيج المصنع ، وتمد الأخرى الفئة الثانية ، بوسيلة تملأ بها فجاج الروح ، أو تنسى بها عالمها ، لتعيش فى عالم من نسج خيالها ، تعمره أشباح هائمة ، وتسوده أجواء مفعمة بجمال الخرافة وسحر الأسطورة .

والنتاج الفنى الرائع قد يكون من صنع أفراد ، وقلة الإقبال عليه لا يعنى بالضرورة أن ذلك النتاج تنقصه الروعة ، ويعوزه الإتقان . . أما النتاج الفنى العام universal art فلن يتحقق إلا فى المجتمع الذى تتحد مشاعره ، وتتفق معايير الأشياء عنده ، وتنسجم آماله وأهدافه . . وبعيد كل البعد أن يستطيع الأديب صوغ خير نتاجه وآنقه إلا فى مثل ذلك المجتمع .

مكتبتنا العربية

فى النقد الأدبى

للأستاذ الشيخ أحمد محمد صقر

كلية اللغة العربية

يفهمون النقد فى عصرنا على أنه تناول الأمر بالعيب والبحث عن النقائص فقط . . . ولكن الحقيقة أن النقد يشمل الكشف عن المساوى وتجلية المحاسن . . والنقد الأدبى - بهذا المعنى - هو الفهم الصحيح والتحليل الدقيق للآثار الأدبية . . . وإظهار القيمة الفنية للأثر الأدبى . ارتفعت هذه القيمة أم انحطت . . . فإذا تناول الكاتب موضوعاً بالنقد فإنما يريد أن يوضحه ويكشف عن حقيقة كما ينقد « الصيرفى » الدراهم ليميز جيدها من زائفها . . !

فما عدة هذا النقد . . . وماوسائله ؟

أهى القواعد أم السليقة ؟

أهى المعايير والقوانين البلاغية أم الذوق السليم والحسّ المرهف ؟ وبعبارة أوضح : أهى الصناعة بقواعدها المعقدة . . . أم الطبيعة بأسلوبها السهل اليسير . . ؟

أسئلة تتدفق على أذهان المشتغلين بالأدب العربى فى هذا العصر . . . وتحتل حيزاً كبيراً من أفكارهم . . . ويختلفون فى الجواب فقريق يقول : إن الأدب فن . . . والفن يرجع إلى الذوق . . . فالحكم فى القضايا الأدبية مستمد من السليقة معتمد على الفطرة . . . وكذلك كان العرب القدماء ينقدون الأدب . . . يتذوقون معناه . . . ويهتزون لموسيقا الألفاظ هزة الشعور بالجمال والإحساس بالحسن . حتى إن الحذاق من النقد زيفوا قصة النابغة الذبيانى مع حسان بن ثابت والخنساء فى سوق عكاظ لأنهم وجدوا عليها مسحة الصنعة ، وهى قصة معروفة تتلخص فى أن الخنساء أنشدت النابغة - وهو قاضى الشعر فى عكاظ - قولها فى رثاء صخر أخيها .

قـــذى بعينيك أم بالعين عُوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

مكتبتنا العربية

فلما قالت :

وإن صخرا لمولانا وسيدنا وإن صخرا إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار . . .

قال لها : لولا أن أبا بصير - يريد الأعشى سبقك لقلت : إنك أشعر من فى السوق . . ؟ فغضب حسان لذلك وقال : بل أنا أشعر منها ومنك ، قال النابغة : حين تقول ماذا ؟ قال : حين أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة : قللت جفانك . . . وقلت « يلمعن » ولو قلت « يبرقن » لكان أجود . . . وقلت فى الضحى « ولو قلت « فى الدجى » لكان أقرب لأن الدجى منزل الضيفان وقلت « يقطرن » وكان « يجرين » أبلغ . . . وافتخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ! !

وقد زيف النقاد هذه القصة وشكوا فى ثبوتها على هذه الصورة لأنهم وجدوا النابغة يعلل لنقده بما يشبه كلام النحاة وأرباب الصناعة مع أنه العربى الصريح الذى كان يذوق الكلام ولا يعرف شيئاً من الاصطلاحات التى وجدت بعد ذلك ، وكان الناقد العربى قديماً يستحسن الكلام أو يستقبحه دون أن يقول لماذا حسنه . . . أو هجنه ؟

ويرى فريق آخر أن الذوق لا يقوم بالنقد ولا يكفى فى احتمال اعبائه ولابد من الاستئناس بالقواعد العامة فى الكشف عن مزايا الأدب أو نقائصه . . . إذ لا يصح أن يترك موضوع خطير كالنقد تتلاعب به الأذواق وتتباين فيه المشاعر فيدمغ أثر جليل بحكم هزيل ورأى خطير . ! !

كما كان يحدث فى الجاهلية وصدر الإسلام إذ يسمع الرجل بيتاً من الشعر فيقسم على الفور بأن قائله أشعر الناس . . . وحين يسأل الرجل عن أشعر الناس يقول : أشعر الناس من يقول كذا . . . ويروى بيتاً أو بيتين فإذا سئل بعد ذلك ذكر شاعراً آخر . . وهكذا لو اقتصيت مقالاتهم لخرجت ، وليس فى الناس شاعر « ليس أشعر الناس ؟ ! !

مكتبتنا العربية

ونحن إذا نظرنا حولنا اليوم لنقرر « أى الرأيين السابقين أصلح ؟ » لوجدنا قومنا فقدوا السليقة فلم يعودوا يفهمون الكلام إلا بواسطة المعاجم ولا يقيمون الألفاظ إلا بعد طول النظر فى كتب النحو . . . ولا يعرفون قيمة التعبيرات إلا بعد أن يستشيروا « السكاكى » وحواشيه فى فوائد « التقديم والتأخير » ، وتعريف « المجاز والحقيقة » . والتشبيه والاستعارة . ! ! فمن أين تأتينا السليقة والصناعة تكتنفنا من الجهات الأربع كما يقولون . . . وتحيط بنا فى كل مكان .

وحسبك أن « البلاغة » وهى المادة التى صار إليها النقد الأدبى فى شكله الممسوخ — تتنافر كتبها مع اسمها ويناقض أسلوبها وطرق البحث فيها المقصود من تأليفها . ومع ذلك يلقى حبل المتأدبين على الغارب يجوسون خلال كتب البلاغة الجافة الملتوية ليخرجوا منها بعشرات القواعد يحكمونها فى الآثار الأدبية ويدورون معها فى المجال الذى رسمه السابقون . فيكرهون الأثر الأدبى الرائع على الانحناء لقواعدهم الملتوية ، وهيهات أن يخضع الوجدان للقاعدة وأن يلبس الشعور ثوب القياس ، فإذا ضاقت الحيلة واستعصى الكلام على الدخول فى حظيرة القوانين المرسومة ارتكبوا فيه التأويلات البعيدة ليصححوا أخطاء مسلكهم وليحافظوا على قدسية « بلاغتهم » كأنها نظريات فلسفية تحتاج الى التمحيص والتحايل وليتهم يعلمون أن الأدب لا يتحمل كل هذا التقليب . ! !

هـــذه حال المثقفين فى عصرنا عامة . . . وهذه طريقة كتب النقد الأدبى أو « البلاغة » كما يسمونها ! طريقة علمية تتخذ الحصر والتعداد وسيلتها وهى طريقة لا تتفق مع المقصود منها لأنها بهذا الوضع لا تخرج نقادا . .

لذلك لم يكن غريبا أن نرى المقصورين على هذه الكتب وحدها قصار المرمى فى ميدان النقد الأدبى فهى تخرج علماء . لا أدباء ، فالذوق الأدبى الصالح غير موجود اليوم . والكتب « النقدية » الملائمة مفقودة فى المحيط المدرسى . فهل نقنع من الغنيمة بالإياب ، ونكتفى بهذا القدر الذى يبلغه قراء الكتب الحالية ، ونترك البحث عن سلائق طال على فقدها الأمد ، واختلطت بها العجمة ، وغطتها رمال الزمن وتسلها التاريخ فأصبحت من ودائعه . . ؟ لا هـذا . ولا ذاك لأن كتب النقد الأدبى التى ألفت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين تتفوق على الكتب المتأخرة فى جمال

مكتبتنا العربية

الأسلوب وتنمية الذوق وتبتعد عن التعقيد الفلسفى الذى منيت به كتب البلاغة المتأخرة ، فلو استطعنا أن نختار أصلحها وأجمعها لموضوعات النقد لسددنا ثغرة فى بناء الفكر الحديث .

ويا حبذا لو جمعنا أجوبة الأحرار من النقاد الأقدمين وتعليقهم على بعض الآثار الأدبية فى كتب يقرأها المتأدبون خالية من القواعد مليئة بالفوائد . وأما ما يتعلق بتربية الأذواق الأدبية والاتجاه نحو خلق جيل تتنبه عنده السليقة فذلك أمر ميسور ممكن ، وبانتشار الثقافة بين طبقات الشعوب تنقرض العامية وتدنو الأمة من السليقة ، ويساعد على ذلك تعهد الذين ينبغون فى الميدان الأدبى بما ينمى ذلك الروح فى نفوسهم ، وإحاطتهم بما يسهل عليهم طول الطريق وبعد الغاية ... ولا شك أن التوجيه مع الاستعداد أنجح من حشو الأذهان دون رغبة أو نتيجة مرضية . فإذا سار التوجيه مع الميل الفطرى كان ذلك خيرا للنقد الأدبى ، أما إذا كان كل همنا أن ندير رءوس الشباب فى الخلافات السكاكية فما أضيع الوقت وأقرب الهدف .

بقيت كلمة صغيرة لأدبائنا الكبار الذين لا يريدون أن يتركوا وراءهم سوى كتبهم ، ونحن نريد منهم أن يتركوا توجيهاتهم وتجربتهم فى حياتهم الأدبية فإن من حق الأدب عليهم أن يساهموا فى خلق نهضة أدبية مبنية على أفكار ناضجة حتى لا يخلو الميدان مرة واحدة بعدهم . وبذلك يقضون واجبا نحو بلادهم ولغتهم ؟

تصحيح أخطاء

عهد المدنية

وقع تحريف طباعى فى بيتين من القصيدة المنشورة فى العدد السابق . صحته فيما يأتى :

البيت الأول :

رائِدُ العلم نختال المنهَى   يشتكى فَقْدَ المنى فى الثمن

البيت الثانى :

سَلْ بحكم الحيْف تشهد سَيِّداً   يَقتنى القانونَ فيما يَقتنى

مكتبتنا العربية

وفاة عالم

توفى الى رحمة الله فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى يس أحد علماء الأزهر الأجلاء ، والمدرس بكلية الشريعة . وصاحب المقالات الممتعة فى مجلة الأزهر .

كان رحمه الله هينا لينا مهذب النفس ، بعيدا عن اللغو واللهو ، وكانت همته مصروفة الى زيادة مادته العلمية ، بمعالجة المسائل الاجتماعية الكبرى بالتحليل الدقيق تحت ضوء الدين والعلم ، فكان فى كل ما يكتبه مفيدا لقارئه بشىء جديد . وهذه ميزة علمية نادرة الوجود .

فنعزى الأزهر والأزهريين بوفاة هذا الألمعى الجليل ، ونعزى أيضا أنفسنا راجين له الدرجات العلا فى حياته الروحية التى آل إليها بعد طول جهاد فى هذا العالم المادى ، ونرجو الله أن يثيبه على ما قدم ثواب الصالحين ، ويجزيه بما جاهد وناضل عن الدين جزاء المجاهدين الصادقين .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ديوان الأسمر

فى نحو منتصف شهر فبراير ، وافتنى منه نسخة مهداة إلى من فضيلة الأستاذ الألمعى ، والشاعر المشهور ، الشيخ محمد الأسمر . فتناولته باهتمام ، واستقلت به فى وسط أعمالى فترة من الزمن ، ولم أدعه إلا لتزاحمها علىّ . ولا عجب فى ذلك ، فإن لشعر الأسمر فى قلوبنا مكانا ممتازا ، ووقعا عظيما ، وكنت أعود إليه كلما سنحت لى فرصة ، فعدت إليه وعدت إليه ، وكلما عدت ازددت به كلفا ، وتملأت به إعجابا .

إن ديوان الأسمر ذخيرة أدبية تعطيك إلى جانب سمو الخيال وجمال الأداء . إبداعا فى التفكير ، وتنويعا فى التصوير ، يرتقى بك إلى درجة نشوة أدبية ، تحس معها كأنك فى بستان تحف بك فيه الأزاهير البديعة الأشكال ، المنسقة الطاقات ، ومن التوفيق أن هذا الإبداع الموضوعى يقابله إبداع شكلى من جمال الطبع وحسن

مكتبتنا العربية

التنسيق ، وجودة التنسيم ، فأنت معه من إبداع الى إبداع ، حتى تقلع طلبا للاستجمام مع نزوع الى العودة فى أقرب فرصة . ولقد صدق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، حيث كتب لشاعرنا ، وقد نشره فى أول صفحة من ديوانه :

« لشعرك تأثير فى نفسى ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل ، فيسرى فى الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

أول ما يطالعك فى ديوان الأستاذ الأسمر ، قصيدة عصماء له فى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء منها :

فجر أطل على الوجود فأطلعا ... شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى ... من بعده شبأ لمكة مطلعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع ... لألاؤه فوق البسيطة موضعا
ما كان ميلاد الرسول المصطفى ... إلا الربيع نضارة وتضوعا
يوم أغر كفاك منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله ... يثنى إليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه ... وثبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى ... ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى ... أنى جرى ترك الجناب الممرعا
وسنا جلاه لتعمر الدنيا به ... من بعد ما كانت خرابا بلقعا
وافى وليل الجاهلية مطبق ... فانجاب عن جنباتها وتقشعا
نادى الى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا ... مستلئما لاقى الطغاة فروّعا
والحق أخفى ما يكون مجردا ... وتراه أوضح ما يكون مدرعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا يثنى ... عن غيه حتى يخاف ويفزعا

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس من هنا نبدأ

اعتاد كتاب العربية الذين يعالجون إصلاح الشؤون الاجتماعية ، أن يعظموا من مظاهر الحياة الأوربية ، ويذهبوا فى تفخيم شأنها كل مذهب ، حتى التى يشكو منها أهلها أنفسهم مر الشكوى ؛ وإنا لنشاهد ذلك ونعجب منه ، ولكن لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى وقف تياره . كل هذا لأنهم يشاهدون تبريزهم فى كل مجال ، ونجاحهم فيما يحاولونه من الأعمال ، فيتخيلون أن الذين يكونون على هذه الشاكلة تكون جميع مدركاتهم قد قامت على أحكم النظم العلمية ، لا يأتيها الخلل من أية ناحية من نواحيها ؛ والباعث الذى يضطرهم إلى كثرة التنويه بالأوروبيين أن يأخذ إخوانهم إخذهم فى شئونهم فينهضون مثل نهضتهم ، ويصلون إلى مثل ما وصلوا إليه من مدنيتهم .

هذه النظرية تقوم على خطأ كبير ، لأنها تخفى الحوافز الحقيقية للنهوض ، وتظهر آثارها بمظهر عللها الأولية ، وهى ليست بها ، فتزداد خفاء على العقـول ، ويزداد الجهل بها تغلغلا فى النفوس ، فتحق على الأمم الواقعـة تحت آثارها صفة العجز فتبقى فيما هى فيه .

ولست أستطيع أن أفهم القارىء كنه الأسلوب الذى استخدمه الأستاذ خالد فى التأثير فى عقـول قرائه ، إلا بنقل شىء منه على سبيل المثـال ، مع الإشارة إلى ما ارتكبه فيه من الشطط والمبالغة ، ومن الخطأ أن يستخدم ذلك أحيانا فى سبيل بث محبة الاشتراكية فى النفوس ، وهى وسيلة ، إن أفادت مرتكبها لأول وهلة ، فقد عادت بأشد المضار عليهم وعلى مبادئهم بعد هدوء العاصفة ، والرجوع الى التثبت والتحقيق فلننقل قطعة من ذلك الكتاب ليرى القارىء ما نقوله له بعينيه ، بل ويلمسه بيديه إن شاء ذلك . قال تحت عنوان : (هذه عوائقنا) : التفاوت البعيد :

« فى طليعة العوامل التى تحرم مجتمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التمايز البعيد الذى يشطره شطرين غير متكافئين .

« ولقد أصبحت هذه الفروق بين شطرى المجتمع من الموضوعات التى يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح ، والادراك السليم . . . .

« واتخذها الساخطون وقوداً يسعرون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد . . . . ونريد الآن قبل تفنيد مضار هذا التفاوت : أن نفهمه على وجهه الصحيح . . . . فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لازالة كل حاجز وفارق بين الناس ، فذلك أمر مستحيل . . . . وإنا لنجد فى أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيداً ضخما من المال ، ومن لا يملك شيئاً . . . . بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما نضاربه ، وكما نرزح تحت كاهله . . وضراوته . . ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضروراتها ، وفى منتصف المسافة أو أكثر ، إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية . . . والمجتمع هناك غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بحاضره ، وهو لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لا يثير التفاوت بغضاءه ، لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ، ولكل فرد من أفراده الحق فى كافة الفرص التى يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً . فهو لذلك لا يجد من الوقت ما ينفقه فى الحقد والبغضاء ، لأنه متجه نحو الفرص المترعة ، بكل مقدرات النجاح والفوز يهتبلها وينتهزها .

« ثم ان التفاوت هناك نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس نتيجة استغلال جشع كالذى عندنا ! من أجل هذا نراهم مؤمنين ببلادهم وبأنفسهم إيمانا يحلق بهم فوق العواصف والأخطار . فهذه السيدة الامريكية التى وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : « إذا خامركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة سوف تلقون فى نهايتها أبا كم ! » وكان أبوهم قد قتل فى إحدى المعارك .

« والمرأة الروسية التى صمدت أمام جنود الألمان ، وقاتلتهم فى مطبخ دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض أخيراً روحها الباسل وهى تقول : « لا بأس أن أموت ! أما روسيا فلن تموت أبدا .

مكتبتنا العربية

« وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى حومة الوغى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ! أى سحر ذلك الذى أنساهم رهبة الموت وقسوة المصير ؟

« إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخوانا وسواسية ـ ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولا عبيد وأرباب . المجتمع الذى منحهم كل أمكانياته وفرصه ، فمنحوه كل ولائهم وقلوبهم . وبادلوه وفاء بوفاء ، وتقديراً بتقدير .

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أدناهما الأعلى ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . . . ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبـــه وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ، ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تتمتات من آلامها وحرمانها ولغوبها . . ! !

« ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الأعلون لأمتهم ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . . . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أتخمتهم نعمه وطيباته فعند ما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع ، ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم ومجد آبائهم . وإن وراء هذا التصرف المخجل لإيمانا عريقاً بالارسطوقراطية ، وحرصا شديداً على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نابية لا تقرها أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا » .

توهم هـذه القطعة التى آثرنا نشرها من كتاب الأستاذ خالد ، أنه أحاط بكل ما أشار اليه فيها من الموضوعات علماً ، وأنه يقررها عن معرفة بتفصيلاتها ودقائقها ، وعن فقه عميق بآثارها ونتائجها ، ويسوءنا أن ندلل على أن مناقشة سطحية لها ترى قارئها أنهـا تقريرات ألفت من غير تمحيص ، وكثير منها يخالف الواقع مخالفة صارخة .

مكتبتنا العربية

فهو يقول فيها : إن الفروق أصبحت شاسعة لدينا بين طبقتى المجتمع ، وأن الساخطين جعلوها وقوداً يزيدون بها سخطهم تأججاً ، إلى آخر ما قاله . والحقيقة أن هذا التفاوت طبيعى وموجود فى كل أمة . وما دام فى الأمة فريق يرقى ويعلم حتى يبلغ آخر مراحل العلم ، وفريق يهمل أمره ويستبق فى أمية القرون الأولى ، فلا بد من وجود هذه الفروق الهائلة فى الأمة ، وليس فى هذا الأمر ما يوجب الحيرة ، فهو أمر طبيعى وعلاجه تعميم التعليم ، ولا علاقة له بأرصدة فى البنوك ، ولا بعلل اجتماعية تجب معالجتها .

ويقول : وانا لنجد فى أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيداً ضخما من المال ومن لا يملك شيئاً ، والواقع أنه لا يوجد روسى واحد يملك رصيداً فى بنك بعد أخذهم بما هم عليه من البلشفية .

وبعد هذه المقدمة الخاطئة التى أثبت فيها وجود حزازات نفسية بين طبقاتنا الاجتماعية ، عاد للتوسع فى استغلال هذا التحاقد الشنيع بين طبقاتنا ، فقال :

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين ، يحقر أعلاهما الأدنى ، ويمقت أدناهما الأعلى ـ إلى أن قال ـ : لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ... ويجلسون فوق أهرام من الذهب ، بينما بقية المجتمع تتمتات من آلامها وحرمانها ولغوبها . الخ الخ » .

نقول إن الأمة المصرية ، وأية أمة إسلامية فى العالم كله لم تنقسم على نفسها إلى معسكرين متباغضين بسبب الشؤون المالية. فإن روح الوحدة سائدة فيها ، وكل ما تقتضيه هذه الوحدة من تحاب وتواصل موجود بينها إلى درجة محسوسة ، فقد يتفق وجود أسرة سرية تسكن داراً واسعة الرحاب تحيط بها حديقة غناء ، ولكنها فى بيئة متواضعة تسكنها أسر فقيرة ؛ فنشاهد عطفا عظيما واحتراما كبيراً من هذه الأسر لأهل تلك الدار الشماء ، فتحيطها بحبها ورعايتها ، ويتسابق آحادها رجالا ونساء إلى خدمتها غير منتظرين من أهلها غير شرف التعارف وكرامة الجوار . جرى الحال فى جميع أدوار تاريخنا على هذه الحال ، ولا يزال يجرى عليه ، حتى إننا لنرى إن اتفق لبعض تلك الأسر أن تنتقل إلى المواطن الراقية التى أعدت لأمثالها ببعض الضواحى ،

مكتبتنا العربية

أن الأفراد الذين كانوا يبادلونها الود من سكان تلك الحارات الضيقة ، لا يزالون يوالونها ذلك الود ، لا يمنعهم منه مانع من بعد الديار . فالتعادى الذى يذكره الأستاذ لايوجد له أثر بين الطبقات فى بلاد المسلمين . وحاشانا أن نتهم الأستاذ بأنه يذكره لينبه إليه النفوس ، ولكننا نقول إنه يذكره ليمهد الطريق للدعوة إلى الاشتراكية .

ونحن نؤكد للأستاذ أن الاشتراكية ما دام من مقوماتها حذف الملكية ، وإبطال حقوق الوراثة ، فانها يبعد أن تسود العالم عن طواعية ، وهو فى عقليته وعواطفه التى هو عليها إلى هذا العهد .

نعم يجوز أن يحدث له تطور اجتماعى يرى معه أن حق التملك يجب أن يلغى وأن عادة توريث الأبناء والأقارب أملاك الشخص بعد موته يتحتم أن تبطل ، بسبب ما يكون قد جد من عادات وتقاليد تضمن حياة الناس دون الالتجاء الى الوسائل المعهودة ، ولكن هذا الوقت لم يحن بعد ، وقد لا يكون قط ، فالاشتراكية والحالة هذه إن لم تكن سابقة وقتها بضعة قرون أو بضعة آلاف من السنين ، فهى من المطالب التى لا تقرها الطبيعة البشرية لأول وهلة . والدليل المحسوس على ما نقول عدم إجماع العمال على الأخذ بها ، بل ليس يقول بها منهم إلا قلة قد تبلغ الخمس ؛ ولكن الأستاذ خالد يكتب عنهم كأنهم مجمعون عليها ، وفى بعض تعبيرات له كأن العالم كله قد آل إليها . كل هذه المحاولات منه تمهيد السبيل لنشرها . ولا ندرى أى شىء يحفزه إليها وليس هو من طائفة العمال ، ولا هو ممن عاش فى عالم اشتراكى فذاق من حلاوته مايدفعه لأن يكون داعية إليه . هذه مسألة لا يعنينا حلها ، ولكننا أزاء نظرية اقتصادية اجتماعية من أشد المسائل العالمية تعقدا ، وأعصاها قيادا ، فإذا كنا نضطر لخوض غمراتها حينا بعد حين فلأن مهمتنا تقتضينا ذلك . أما هى فى ذاتها فليست من المسائل الوشيكة الحل ، ولو قلت إن بينها وبين الفصل فيها قرونا طويلة فلا تكون مبعدا فيما تقول .

والمسلمون فوق هذا لا يهمهم حل المسألة الاشتراكية ، لأن دينهم قد أدمج مسألة الثروة فى أمور الدين من ناحية الزكاة التى هى إحدى أصول الإسلام الخمس فأصبحت الناحية الاقتصادية متصلة بأمور الدين الأولية .

نعم إن المسلمين لا يعملون بدينهم الآن ، وقد أهملوا أمر الزكاة إهمالا يؤاخذون عليه ، لأن فى إهماله إهمالا لحقوق السواد الأعظم من الأمة وهم الفقراء ،

مكتبتنا العربية

ولا بد من أن تثار هذه المسئلة فى يوم من الأيام وتحاسب الأمة نفسها على إغفالها حسابا عسيراً ، واذ ذاك يفصل فى أمرها بنسبة ما تكون عليه حيال دينها . فإن كانت مستهدية بهديه أو عاملة على ذلك جهد طاقتها . فإن مسألة الزكاة تحل حلا يحفظ حقوق الطبقة الفقيرة من الضياع : وإن كانت منتسبة إلى الدين دون العمل به كما هو شأنها اليوم ، فإنها قد تخضع للظروف وتحل المسألة الاقتصادية على الوجه الذى حلتها به الأمم الغربية .

أما قوله إن التفاوت بين الأغنياء والفقراء جعل منهما معسكرين متباغضين يتربص كل منهما بالآخر السوء ، لأن المشكلة لا تتمثل فقط فى حرمان الفقراء من متع الأغنياء فى أكلهم ومقداره ونوعه ، وفى لبسهم ورغدهم وثرائهم ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيشون فيه ، الخ ، فهو استنتاج خاطىء ، لأن الإسلام نفسه قرر أن الله فضل بعض الناس على بعض فى الرزق ، فقضى بالغنى لطائفة وبالفقر على أخرى لمصلحة كل منهما ، وجعل مجال التسابق مباحاً للكافة فى كل زمان . لذلك لم تنقسم الأمة الإسلامية فى أى عهد من عهودها إلى شطرين : شطر الموسع له ، وشطر المضيق عليه لحكمة تقتضيها حاجة الاجتماع ، ولم يسد طريق الوصول إلى الثروة بالأسباب المشروعة فى وجه أى طالب من أية طبقة من الأمة .

هذه الحكمة الجليلة حمت المسلمين فى جميع عهودهم من تألب الطوائف بعضها على بعض كما حدث فى الغرب ، فجعلت ممالكه مسرحا للفتن والمؤامرات فى القرون الأخيرة ، ولا تزال على أشد ما يكون فى عهدنا هذا . وقد تولدت منها مذاهب مختلفة تستخدم جميع ضروب التخريب للوصول إلى أغراضها ، ومنها الاشتراكية التى يدعو إليها الأستاذ : فهل يريد حضرته الانتهاء بنا إلى هذه المآزق ؟

وعلى أية حال فنحن سائرون إلى الغاية التى انتهى إليها الغرب وهى ضرب الضرائب على أموال الموسرين وإسعاف المقلين بحاجاتهم منها ، وهو على أى حال شىء من الزكاة المفروضة على المسلمين وإن لم يكن بها من كل وجه . فليس علينا معشر المسلمين إلا الانتظار مع التنويه بالنظام الاقتصادى الإسلامى حتى لا يدثر فى الأذهان ، فهو أكمل وأوفى من النظام الأوروبى كما سنبينه هنا فى فرصة قد تتهيأ له فى بعض البحوث .

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

التفسير

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » [١٠٥ : سورة النساء]

شرحنا فى العدد الماضى مفردات هذه الآية الكريمة وبينا مناسبتها لما قبلها وسبب نزولها ، كما بينا موقف القرآن والإسلام من قضايا المسلمين وأحوالهم ووجوب الاحتكام إليه فى كل أمورهم ، واتخاذه أساساً لحياتهم فى جميع صورها ، وبقى فى هذه الآية بحثان : أحدهما يتعلق بقوله تعالى « بما أراك الله » وثانيهما بقوله « ولا تكن للخائنين خصيما » .

والحق أن البحث الذى يثار حول النقطة الأولى بحث أثاره المفسرون الأصوليون ، وإن كان الفهم للآية قد يستغنى عنه ، ولكن لم يعد لنا بد من التعرض لهذا البحث ، لا سيما والآية التى تلى هذه الآية وهى قوله تعالى « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما » تستدعى البحث عن دواعى الاستغفار : هل يستغفر الرسول من صغيرة ، أو من خلاف الأولى ، أو يستغفر لأمته ؟

إن الله سبحانه وجد أن رسوله صلى الله عليه وسلم قد هم - حسب طبعه البشرى وعلمه الظاهرى وحبه للمسلمين واعتقاده الصدق فيهم - بالحكم على اليهودى البرىء ، فأرسل الله له الوحى بهذه الآية الكريمة ليوجهه إلى غير ما هم به ، ويبين له أن الله أنزل عليه القرآن ليحمى الحق ، ويصونه من الأهواء والعصبيات ، ويحكم به بين الناس ، ويترسم طريقه فيما يقول ويفعل . وليس مما أنزل الله من قواعد الحق أنه يتبع الهوى والعصبية ، ويميل مع الغرض ، فإن الله سبحانه قد أحاط الحق والعدل فى قرآنه بسياج قوى من الوصايا والأوامر تحميه من الاعتداء عليه أو المساس به ولو من بعيد لحب نفس أو قريب أو مال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

مكتبتنا العربية

والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا [١] » .

« ولا يجر منكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا [٢] » ، وكرر الله الأوامر فى القرآن للحكم بالحق وعدم اتباع الهوى . وهنا فى هذه الآية يوجه الله نظر الرسول إلى هذه القواعد والأوامر . ليحول بينه وبين الميل الطبعى والنفسى مع قوم أظهروا إسلامهم وتواطئوا على الشهادة لمصلحة قريبهم المسلم ، فالآية لا تزيد عن توجيه الرسول إلى الحق والحكم به « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ومع هذا ، فإن الباحثين اختلفوا حول قوله تعالى : « بما أراك الله » هل هو بمعنى أعلمك علماً يقنيا كالرؤية فى القوة ، ولا يكون ذلك إلا بالوحى الذى يحدد المراد على وجه قطعى . وعلى هذا فتوجيه الرسول هنا إلى الحكم بالوحى فقط ولا يتعداه إلا إلى قياس يرجع إلى الحكم بالنص . وحينئذ لا يكون فى الآية دليل على جواز اجتهاد الرسول ، ولكنها مع ذلك لا تدل على منع الاجتهاد ، لأن الآية نزلت فى موضوع خاص .

ويحتمل أن يكون معنى « بما أراك الله » بما نزل به الوحى . أو بما أدركته بواسطة نظرك واجتهادك فى أحكام الكتاب وأدلته ، فاتباع النص حين وجوده . والاجتهاد حين لا يوجد النص ، والمراد على كل حال منع الرسول من الخضوع لأقوال الشاهدين وعصبتهم ، ومن الميل للمسلمين على اليهودى وحجزه عن الوقوع فى خطأ ينتج عن ذلك .

جاء فى تفسير المنار للأستاذ الإمام « ومن مباحث الأصول فى هذه الآية مسألة حكمه صلى الله عليه وسلم بالوحى فقط ، أو بالوحى تارة وبالاجتهاد أخرى » ثم نقل فى موضع آخر عن كتاب « الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية » للإمام سليمان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى قوله : « لتحكم بين الناس بما أراك الله » يحتمل أن المراد بما نصه لك فى الكتاب ، ويحتمل أن المراد بما أراكه بواسطة نظرك واجتهادك فى أحكام الكتاب وأدلته . وفيه على هذا دليل على أنه

---

[١] النساء ، ١٣٥ ، [٢] المائدة ، ٢ ،

مكتبتنا العربية

عليه الصلاة والسلام كان يجتهد فيما لا نص عنده فيه من الحوادث ، وهى مسألة خلاف فى أصول الفقه . وفى موضع آخر قال : « ثم على القول الأول - وهو أن الاجتهاد جائز له - هل يقع منه الخطأ فيه أم لا ؟ قولان للأصوليين أحدهما : لا ؛ لعصمته ، والثانى : نعم ، بشرط ألا يقر عليه استدلالا بنحو « عفا الله عنك لم أذنت لهم - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » ونحو ذلك . اه [١] .

فترى من هذا أن الأصوليين مختلفون فى الموضوع الذى أثاروه : فمنهم من أجاز للرسول أن يجتهد لأنه منصب كمال ، ولا ينبغى أن يفوته عليه السلام . وأن فيما روى عنه ما يدل على وقوعه منه ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « لو قلت نعم لوجب » وقوله : « لو سمعت شعره قبل قتله لم أقتله » وقوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » وأيضاً عتاب الله لرسوله فى الآيتين المتقدمتين يدل على أن الرأى الذى ذهب إليه كان باجتهاد منه لا بتوجيه الوحى له ، وإلا لما كان هناك محل للعتاب مطلقاً .

أما الذين ذهبوا إلى عدم جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فقد احتجوا بقوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » وبأنه قادر على يقين الوحى ، والاجتهاد لا يفيد اليقين .

وقد جاء فى تفسير المنار أن قوله تعالى « ما ينطق عن الهوى » لا يدل على منع الاجتهاد « لأن هذا فى القرآن خاصة ، وإلا كان كل كلامه عليه الصلاة والسلام وحياً ، وقد ورد أن الوحى كان ينقطع أياماً متعددة ، وأنه كان يسأل عن الشيء فينتظر الوحى ، كما كان يسأل أحياناً فيجيب من غير انتظار للوحى » وليس بمعقول أن كل ما كان ينطق به عليه السلام فى كل الأمور كان بوحى . وأما قولهم : إنه كان قادراً على يقين الوحى فغير مسلم لهم على إطلاقه ، فشأن ذلك لله سبحانه .

والذى أميل إليه من خلال هذه الأدلة أنه كان للرسول صلى الله عليه وسلم مجال له أن يجتهد فيه ، وكان هذا المجال بعيداً عما كلفه الوحى بتبليغه ، إذ أن ذلك لا محل فيه للرأى مطلقا ، وكان الله سبحانه يوجه الرسول فى بعض الحالات إلى

---

[١] جزء خامس ص ٣٩٥ تفسير المنار .

مكتبتنا العربية

غير ما أداه إليه اجتهاده ورأيه ويعاتبه ، والقرآن شاهد بذلك فى غير موضع .. وسواء كان العتاب على ترك الأولى أو على خطأ فى الرأى ، فإنه كان على كل حال دليل على أن الرسول ذهب إلى هذا الرأى باجتهاده لا بتوجيه الوحى ، ولا يغض هذا من مكانة الرسول . إذ أن ذلك من مقتضيات البشرية . فليس معنى اختيار الله له لتبليغ رسالته أنه ارتفع فوق الطبيعة البشرية ، أو أنه صار مسيراً بالوحى فى كل ما يأتى وما يدع من أمور الدين والدنيا . على أنه « لا يبعد أن يقال : ان فى جواز الخطأ فى اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فكر البشر وإن كان فى أعلى الدرجات يحتمل الخطأ بخلاف الوحى[1] » . ثم إن الحادثة التى نزلت الآية من أجلها تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كاد يحكم على البرىء برأيه طبعا ، ولكن الله حرسه بالوحى « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك » . « وكان فضل الله عليك عظيما » . ولو أن رأى الرسول وافق الصواب فى اتجاهه لما كان هناك حاجة لوحى .. ولكن - علم الله وله الأمر والتدبير - ما كنا نظفر فى القرآن بهذه الآيات البينات ذات المبادىء العظمى . وأعتقد أن البحث حول هذه النقطة ، قد استوفى حقه . فلننتقل إلى النقطة الأخيرة وهى قوله تعالى « ولا تكن للخائنين خصيما » .

ذكر الله هذا النهى فى آخر الآية بعد توجيهها للرسول فى أولها . ونلاحظ أن الله لشدة غيرته على الحق كرر تحذير الرسول من البعد عنه . واحتضان الباطل والمبطلين « ولا تكن للخائنين خصيما » ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » والخائنون هم الذين سرقوا وأرادوا أن يبرئوا أنفسهم ويلصقوا التهمة بغيرهم ، وتجمعوا متعصبين لقريبهم السارق ، شاهدين ببراءته وإدانة اليهودى أمام الرسول حتى كاد يتأثر بالظاهر من أمرهم ، مع ميله الطبعى وحبه النفسى لأتباعه المسلمين ، - ولو أن هذه المؤامرة دلت على بعدهم عن الإسلام - فاتجه الرسول إلى الأخذ بالظاهر والحكم على اليهودى البرىء ، فقال له الله « ولا تكن للخائنين خصيما » وبذلك عرف الرسول أمر هؤلاء المتآمرين ، وعرف أنهم الجناة الخائنون الذين ارتكبوا وزرين : وزر السرقة ، ووزر اتهام البرىء . وحينما انكشف للرسول أمرهم تنحى عن الدفاع عنهم والانتصار لهم ، ولم يستطع الجانى إلا الهروب خوف الحكم عليه .

---

[1] كتاب التحرير للكمال ابن الهمام .

مكتبتنا العربية

ما أعظم الحق !! يحرسه ذو الجلال ويغار عليه ، ويكره أن يضام رجل برىء - ولو كان يهودياً مخالفاً لله ورسوله - ويؤخذ بجريرة غيره ، وينزل فى ذلك قرآنا يتلى إلى أن تقوم الساعة يحمى الحق من المتآمرين عليه ، وينير طريقه للرسول حتى لا يتأثر بدسائسهم ، قد يحدث مثل هذا فى كل يوم وفى كل بلد ، وينتصر الباطل على الحق ، ويقع البرىء تحت سياط العذاب ويفلت الجانى الأثيم ، ولكن ذلك لا يكون ، والوحى ينزل على الرسول ينبئه بالحقيقة التى يحيط بها علام الغيوب . فكانت هذه الآيات التى تقرر مبدأ من أهم المبادىء وأسماها ، وهو عدم الانتصار للجناة والدفاع عنهم . هو الاتجاه إلى الحق والعدل أينما كانا ، لا يفرق فى ذلك بين الناس لجنسهم أو دينهم أو جاههم وسلطانهم ، فالكل أمام الحق سواء ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »[1] .

ما أحرانا بتدبر هذا والعمل به !! فكثيراً ما نرى أناسا منا يحتضنون المجرمين ويحمونهم بجاههم وسلطانهم ، وهم يعلمون مقدار جرمهم ، وكثيراً مارأينا الحق تميد جوانبه تحت ضربات العصبية ، وتطمس معالمه بغبار الأهواء الشخصية كم رأينا عظيما يفلت من سلطان الحق والقانون ؛ لأنه عظيم ، ولو كان عظيما فى جرمه ! وكم رأينا صحفا تسخر قواها للدفاع عن المجرمين وإخفاء معالم الحقيقة ساخرة من الحق ومن عقول قرائها لحاجة فى نفسها !! وكم رأينا هيآت تتألب على الحق وتهوى عليه بقوة سلطانها ! !

وكم رأينا محامين يدافعون عن الجناة الآثمين فى حق الله والوطن ، وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يقلبون الحقائق ويسخرون ما آتاهم الله من مواهب لينتصروا بباطلهم على الحق ، وينتزعوا المجرم من يد القصاص ؛ ابتغاء المال الكثير والجاه الوفير !

ونسى هؤلاء وأولئك مقدار الجرم الذى يرتكبونه فى حق الله والوطن ، نسوا جميعاً قول الحق الأعلى سبحانه « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون[2] » نعم « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله[3] » .

فاللهم : لطفا بعبادك وهداية ! ! . .

---

[١] المائدة الآية ٨ [٢] ١١٣ سورة هود [٣] آخر الانفطار .

مكتبتنا العربية

القرآن وعقيدة البعث

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

يهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيما ، فقلما نجد سورة من سوره - إذا استثنينا بعض قصار المفصل - ألا تذكر البعث وتمرر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ، ما بين تذكير وبيان وضرب للأمثال ونفى للشبه وغير ذلك .

وإنما عنى القرآن الكريم بهذه العقيدة لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح فى العالم ، فإن البشر مهما اختلفت ميولهم وأعمالهم لا يخرجون عن صنفين :

(١) صنف يعمل الخير ويركن إلى الصلاح حباً فى الخير والصلاح ، كما يترك الشر والفساد كراهية فى الشر والفساد ، فهو لا يلتمس جزاء ولا شكورا حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح ، ولا يخاف حساباً ولا عقاباً حين يترك الشر ويعزف عن الفساد ، وإنما يترك هذا ويفعل ذاك مجاراة لعاطفة فيه ونزعة تدفعه إلى الفعل والترك ليس إلا .

(٢) وصنف يعمل الخير ، ويترك الشر ، ناظراً إلى الجزاء مقدراً أن وراء الفعل أو الترك مصلحة له أو مضرة عليه ، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو ، وينظر إلى العواقب التى تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه .

والصنف الأول قليل لا يكاد يوجد ، أما الصنف الثانى فإنه الكثرة الغالبة والشأن فى الناس ، ذلك بأن طبيعة البشر طبيعة انتفاعية تبادلية ، كل منهم يريد أن يكون متمتعا بالخيرات والحسنات ، بعيداً عن الشرور والمصائب ، وأمثلهم هو الذى يرجو من وراء الاستقامة رضا الله ، أو رضا الناس ، دون نظر إلى نفع مادى اكتفاء بحسن الأحدوثة ، وطيب الذكر .

لهذا قضت حكمة الحكيم أن يجعل وراء هذه الدار داراً ، يرى فيها المرء جزاء

مكتبتنا العربية

عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وجاء القرآن الكريم بإقناع الناس بأن هذه الدار حق ، لينظروا إليها ، ويقصدوا بما يأتون أو يدعون وجه الله وثوابه فيها . فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة ، وآمنوا بها إيماناً لا يخالجه شك ، لاستقامت أمورهم ، وكثر فيهم الخير والاحسان ، وقل بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر فى كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتخلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريه الشك فى البعث ودار الجزاء ، ويستنيم إلى الحاضر والواقع الذى يعيش فيه ، ولا يلمس سواه ، فلا يصدق أنه سيبعث بعد الموت ، وأنه سيعرض للحساب .

* * *

وإنكار البعث أو الشك فى أمره يرجع فى ذهن المنكر أو الشاك إلى أحد أمور .

(١) إما مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتا بعث من رمسه ، وعادت إليه الحياة كرة أخرى ، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا .

(٢) وإما استبعاده واستعظام أمره ، فإن الأحياء قد ألفوا أن يروا أجساد الأموات تتفرق وتتحلل وتفسد وتفنى فى الأرض وتختلط بالتراب ، فلا تكاد عقولهم تسلم فى سهولة ويسر أمر عودتها وتركبها وصيرورتها جسما حياً يسعى ويدرك .

(٣) وإما كونه أمراً لا تدعو إليه حاجة الناس ، وليس وراءه مصلحة ترجى .

(٤) وإما العناد فى أمره ، والمكابرة والإصرار على تكذيب الدعوى فيه بعد تبين الحجة وظهور البرهان .

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله ، ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم .

(١) فقال للذين حسبوه مخالفا للسنن المألوفة : إنكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله تشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها .

فهذه الأرض تكون ميتة هامدة ، فينزل الله عليها الماء ، فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات « وترى الأرض هامدة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

مكتبتنا العربية

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » .

وهؤلاء الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به قومه أول مبعثه إذ يقول « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما يستيقظون » وقد جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهذه هى الحبة الجافة يحولها الله بالإنبات إلى زرع نضير ، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مثمرة ، « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تلفت إلى نظائر البعث والنشر فيما ألف الناس .

(٢) وقال للذين يستبعدون ذلك ، ويستعظمون أمره : إن الله لا يعجزه شىء ، وليس شىء عليه بمستبعد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق ، وأنشأه من العدم : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، « كما بدأنا أول خلق نعيده » ، « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » ، « وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون » ، « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » ، « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق . وترد عليهم فى استبعادهم الأمر ، واستعظامهم إياه فى مثل قولهم « أيعدكم أنكم إذا متم

مكتبتنا العربية

وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

(٣) ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو إليه حاجة ، ولا تقضى به حكمة « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون » . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » . « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر حكمة البعث ، ورجوع الناس إلى الله . فى يوم مشهود ليحاسبهم ويجزيهم بالسوء سوءا وبالإحسان إحساناً .

(٤) أما المعاندون المكابرون فيجابههم بالدعوى ويكررها عليهم . ويقسم عليها فى مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله ، كما لو كانوا يشاهدونه إشعاراً لهم بأنهم يكابرون فيما يعلمون ، وأن الله لا يعوّل على مكابرتهم ، بل يسوق لهم الكلام فى هذا الشأن حسب الواقع الذى يعلمه ويعلم أنهم يعلمونه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم » . « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق . قالوا بلى وربنا . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ، « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون ، قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ، ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تصور أحوال القيامة ، وحيرة الكافرين ، واعترافهم بعد رؤية العذاب .

* * *

هكذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة ، ويقرره على كل مؤمن عقيدة من عقائد الحق التى لا تقبل الشك ، ولا يقبل الله فيها تأويلا ولا شقاقاً ، ويستقصى كل ما يدل عليه ، ويثبته فى القلوب ، ويزيل عنه الشبهات .

مكتبتنا العربية

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

بعد الكلمة الأولى التى رأينا التمهيد بها للحديث عن رأى الشيخ الرئيس فى بعض مشاكل العصر الحاضر الذى نعيش فيه ؛ هذه المشاكل التى يأخذ بعضها منّا بالخناق ، ونذهب نتلمس لها حلولا من هنا أو هناك ، متناسين ما للإسلام من فكر وفقه فيهما غناء أى غناء فى كثير من مشاكلنا وأمورنا العامة ! نقول بعد هذه الكلمة ، نتكلم اليوم عن رأيه فى مشكلة العمل والبطالة ، أو مشكلة الضمان الاجتماعى . وسنرى هنا أنه أتى ، وهو بسبيل علاج هذه المشكلة ، بآراء لم تكد تعرف إلا فى هذا العصر الحديث ، ومع هذا يحسبها العامة وأشباه العامة فى تاريخ الفكر من مخترعات فلاسفة أوربا ومفكريها .

وهو يبدأ الحديث فى هذه الناحية ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يمكن أن يعيش عيشة طيبة لو انفرد وحده ولم يشارك غيره من بنى جنسه فى حياتهم ومجتمعاتهم . ذلك بأنه لابد من أن يكون الإنسان مكفيا فى كثير من حاجاته وأموره بآخرين من نوعه ، كل منهم يخدم الآخر فى ناحية من نواحى الحياة المادية أو المعنوية . ومن أجل هذا ، كان الإنسان - من قديم الزمن حتى الآن - مضطراً إلى عقد المدن وتأسيس المجتمعات . حتى يكون البعض للبعض وإن لم يشعروا خدم [١] .

---

[١] هذه الفكرة نجدها قبل ابن سينا لدى الفلاسفة والمفكرين الذين نظروا فى الاجتماع . فأفلاطون ، فى المقالة الثانية من الجمهورية ، يرى أن الاجتماع ظاهرة طبيعية سببها عجز الفرد عن القيام وحده بكل ما يحتاجه . وأرسطو ، فى المقالة الأولى من كتاب السياسة ، يقرر أن الذى لا يحتاج لغيره إما بهيمة أو إله . ويرى مسكويه فى كتابه الفوز الأصغر أن الانسان لم يخلق خلق من يعيش وحده ، وليتم له البقاء بنفسه . والفارابى يؤكد هذه الفكرة فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة على ما هو معروف .

مكتبتنا العربية

ويخلص من ذلك بتقرير أنه لابد إذاً فى وجود الإنسان وبقائه من مشاركة ، وأنه لا تتم هذه المشاركة إلا بمعاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا بد فى المعاملة من أن تكون على أساس من سنة وعدل ، ولا بد للسنة من شارع يجيء بها من لدن الله جل وعلا ، وهذا لا بد أن يكون إنسانا ؛ والنتيجة لهذا كله بيان أنه من الضرورى أن يوجد نبى يرسله الله للناس بهذه السنة والشريعة ، وأن يكون هذا النبى إنسانا من الناس لا ملكا من الملائكة .

وعلى هذا النبى ، بعد ما يأتى به من شرائع للناس فى العقائد والعبادات والمعاملات ، أن ينظر فى ترتيب المدينة (يريد بها الدولة) فيقيمها على دعائم ثلاث : المديرون والحفظة والصناع ومن إليهم ، وهنا نلمح فى وضوح رأى أفلاطون فى هذه الناحية [١] ثم يذكر أن كل طبقة من هذه الطبقات يكون عليها رئيس ، وهذا الرئيس يكون تحت أمره رؤساء دونه مرتبة ، وهكذا حتى نصل إلى إفناء الناس ، وحينئذ يكون لكل فرد عمل معروف ومقام محدود ، وإذاً فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل .

على أن الشيخ الرئيس لم يكن بالفيلسوف النظرى الذى يضع القواعد ولا يفكر فى الوسائل والتطبيق لما رأى ، نعم ، لم يكن بالمفكر الذى يتعامى عما حوله ، ويتجاهل واقع الحياة وأحداثها ، إنه برغم ماجعله لكل فرد من أبناء الأمة من عمل محدود معروف حتى لا يتعطل أحد عن العمل الذى به يكسب عيشه ، رأى أن هناك متعطلين بالفعل لهذا السبب أو ذاك من الأسباب التى تختلف من آن لآن .

---

[١] حقيقة لقد استلهم ابن سينا أفلاطون فى هذه الفكرة فى كتابه الجمهورية المقالة الثانية . وظاهر ان كليهما نظر فى هذا إلى الانسان وقواه الثلاث ، وإلى الترتيب الطبيعى الواقع فى أى مدينة من المدن .

إلا أن الشيخ الرئيس خالف أفلاطون فيما رآه من الشيوعية فى المال والنساء بالنسبة للحكام والجند ، ونعتقد أن ابن سينا وقد اتبع فى رأيه الشريعة الاسلامية ، تأثر بأفلاطون نفسه حين رجع عن هذه الشيوعية فى كتاب القوانين المقالة الخامسة ، وبأرسطو حين نقد رأى أستاذه مبيناً ما يكون من ضرر شديد فى التضحية بالملكية الخاصة والأسرة فى سبيل الدولة ، انظر فى هذا كله كتاب السياسة المقالة الثانية . إن المعلم الأول يرى بحق أن الشيوعية فى النساء وما ستتبعه من الشيوعية فى الأولاد تضر ضرراً كبيراً بهؤلاء وأولئك ، وكذلك الشيوعية فى المال تجلب هذا الضرر العام .

مكتبتنا العربية

ولهذه نجده يقول إنه إن وجد فعلا جماعة متعطلون عن العمل ، وتمادى بهم الزمن ولو بعض الوقت على هذا الحال ، يجب أن ننظر فى أمرهم ، فإن كانوا قادرين على العمل ، وكان العمل موفوراً لمن يريد ، وكان الطريق إليه ميسوراً ، وإنما الامتناع عن العمل يرجع إلى الكسل ، كان من الضرورى على الدولة ردع هؤلاء الكسالى وتأديبهم وسجنهم إن لم ينفع فيهم الردع والتأديب : ومن هنا ، نرى فى وضوح أن صاحب كتاب الشفاء كان يحرم التسول تحريما باتا ؛ التسول الذى صار داء من أدوائنا الاجتماعية ، بل صار مهنة تدر على من يمارسها أضعاف ما يدره العمل الشريف ، وبخاصة وجمهرة المتسولين قادرون على العمل ، ولكنهم لا يريدون ما دامت الحكومة غير جادة فى أخذهم بالحزم .

وإن كان السبب فى البطالة لا يرجع إلى الكسل ، بأن كان العمل غير ميسر لكل من يريد ، أو كان السبب فى البطالة المرض أو الشيخوخة أو ما إلى ذلك بسبيل ، كان الخالى من العمل معذوراً ، وكانت الدولة ملزمة بتوفير الحياة المناسبة له ؛ وسبيل هذا كما يرى الفيلسوف العملى ، أن يجمع هؤلاء الذى لا يستطيعون العمل فى مكان خاص ، وهو الملجأ بلغة العصر ، وأن يجعل عليهم قيّم ينظر فى أمورهم ويدبر أحوالهم .

ولا بد فى هذه الحالة من مال ينفق عليهم منه ، وبه تصلح أمورهم : هذا المال يجب ، فى رأى ابن سينا ، أن يجمع من ضرائب تفرض على الأرباح الطبيعية والمكتسبة ، يدفعها الأغنياء والقادرون على العمل ، والذين يربحون مما يعملون شكراً لله على ما حباهم به من نعمة وفضل ، كما يجمع هذا المال من عقوبات تفرض على الذين يخالفون أمر الله وشريعته ، ومن شىء من بيت المال العام .

وهنا أذكر أننى لست بالذى يسرف فى تمجيد الماضى ، لأن الزمن قد أكسبه جلالة وقداسة ، ولا بالذى يبخس التفكير الحاضر لأنه لم ينل بعد من الزمن بعض الجلال ، ولكنى اعتدت أن أنظر للقول لا للقائل ، ثم يكون بعد هذا الحكم والتقدير .

وعلى هذا الأساس نجد تفكير ابن سينا منذ أكثر من ألف عام أو يزيد لا يكاد ينقصه شىء مما وصل إليه المفكرون المحدثون المعاصرون فى هذه الناحية . فقد لاحظ أن الله ـ جلت حكمته ـ لم يُسوِّ بين الناس فى حظوظ المال والثروة ،

مكتبتنا العربية

كما لم يسو بينهم فى حظوظ العقل والملكات والقدرة على العمل : ومن ذلك كان لا بد أن يكون كل مجتمع على طبقات مختلفة . وهذا ليحس كل فرد من أفراد المجتمع الحاجة لأخيه ، ويعين بعضهم بعضا ، فيقوم المجتمع وتصلح الحياة . ومن ثم ، نرى فيلسوفنا يقرر أن لكل من أفراد المدينة عملا يناط به أداؤه ، ومنزلة يضع نفسه فيها ، وتكون النتيجة أن يعمل الجميع ويحيا الجميع حياة طيبة .

ولكن ، وهنا الناحية الواقعية فى هذا الجانب من فلسفة ابن سينا ، نراه يلاحظ أن أى مجتمع قد لا يخلو من أناس يضطرون للبطالة ، وأن هؤلاء الناس إخواننا فى الوطن والإنسانية ، وإذاً يجب عونهم وتوفير الحياة المناسبة الشريفة لهم فى مكان يعيشون فيه ، وتتولى الدولة الإنفاق عليهم على ما عرفنا .

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن فيلسوفنا كان رجلا عمليا حقا ، بجانب كونه فيلسوفا نظريا ممتازا : إذ فكر فى المشكلة وفى حلها أيضاً . وفى سبيل هذا الحل الموفق غاية التوفيق ، نراه يتحرر من بعض ما كان يسود أيامه من آراء بعض الفقهاء . إنه لم يقل معهم بأن المرء متى دفع ما عليه من زكاة خلص من جميع ما عليه من حقوق مالية لوطنه وإخوانه ؛ بل إن عليه بعد هذه الزكاة المفروضة أن يسهم بنصيب من أرباحه للمعوزين ، ليقوم التضامن الاجتماعى بين أبناء الوطن الواحد . ولم يقل أيضا مع هؤلاء الفقهاء بأن معصية الله لها عقابها فى الدار الأخرى فقط [1] ؛ بل رأى ، بجانب ما سيكون من هذا العقاب الأخروى ، فرض نوع من العقوبات المالية للإنفاق منها على من تقطعت بينهم وبين العمل الأسباب وكانوا معوزين .

ذلك بأن هذا الفيلسوف كان يعرف من الواقع والتجربة أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن هناك من لا يتذوقون أول الأمر حلاوة الطاعة لأمر الله ونهيه ، ومن ثم يكون الخير أحيانا فى فرض عقوبات — بعضها مالى — على من لا يقف عندما أمر الله ونهى ، فليس — كما يقول — كل إنسان ينزجر لما يخشاه فى الآخرة ؟ (الحديث موصول)

---

(١) من المعروف أن بعض المعاصى لها جزاؤها الدنيوى المعروف فى كتب الفقه بجانب الجزاء الأخروى . ولكنى هنا أريد الاشارة لطرافة رأى ابن سينا فى فرض عقوبات مالية مع هذا كله .

مكتبتنا العربية

القرآن الكريم واللغة

وأيهما يؤيد الآخر

للمصور الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يلتقى الباحثون فى القرآن الكريم ، ممّن يؤمنون به ، ومن غيرهم ، فى أنه نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر الذى يقطع كل ريبة فى اتصال سنده ، وصحة متنه ، حتى ما كان من قبيل الأداء . كالمدّ وغيره من مقومات ترتيله وتلاوته .

ويفترقون ، فى أن الأولين ، يؤمنون ـ مع ذلك ـ بأنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى ، للتعبد بتلاوته ، وللتحدى بأقصر سورة منه ؛ وأنه نزل بلغة قريش ولغات بعض القبائل الأخرى من مضر ، وهى : كنانة ، وأسد وهذيل ، وضبة ، وبنو سعد ، وثقيف ؛ ولاختلاف لهجات هذه القبائل ، اختلفت صور أداء القرآن الكريم ، ونشأت القراءات ، التى هى اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى الحروف أو كيفيتها ، من تخفيف وتشديد ، وترقيق وتفخيم ، وإبدال ، وإمالة ، وغير ذلك . ولما أمر عثمان رضى الله عنه : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ؛ بكتابة المصحف الامام ، قال للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شيء من القرآن ، فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

ويرى الآخرون ، وهم المستشرقون ، ومن أولع بمذاهبهم فى البحوث والدراسات : أن القرآن الكريم كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وأن تواتره المقطوع به ، يجعله أصدق نص عربى يمثل اللغة العربية الفصحى ، فى العصر الذى تلى فيه ؛ ولما كانت ألفاظ اللغة ، التى دونت فى معاجمها المختلفة فى العصر العباسى وما بعده ، إنما رويت آحادا ، وفى نصوص قوى الشك فى أنها منحولة : فأن النص القرآنى يجب أن يكون « الحكم » فى متن اللغة ، لا أن تكون اللغة « حكما » فى نصوص القرآن .

ونحن - وان كنا لا نزعم أن ألفاظ اللغة قد رويت بالتواتر - نعلم أن حرص المسلمين فى العصر الأول ، على فهم القرآن الكريم ، كان أقوى من حرصهم على الحياة ، وأن سبيلهم إلى هذا الفهم ، ملكاتهم وتتبعهم للألفاظ الواردة فى كلام القبائل التى نزل القرآن بلغاتها : ومضى الأمر على ذلك ، عصرَ بنى أمية ، وصدرا من عصر بنى العباس : حتى إذا اشتد الاختلاط ، وفشا اضطراب الملكات ؛ وأراد علماء البصرة والكوفة - رئتا الاسلام ، ومباءته - تدوين اللغة : عمدوا إلى أخلص العرب لسانا ، وأنآهم عن العجمة دارا ، فأخذوا عنهم : أخذوا أكثر اللغة من قيس وتميم وأسد ، واتكلوا عليهم فى الغريب والإعراب والتصريف ؛ ثم من هذيل وبعض كنانة ، وبعض طئ : ولم يأخذوا من لخم وجذام ، لمجاورتهم أهل مصر القبط ؛ ولا من قضاعة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية ؛ ولا من تغلب والنمر ، لأنهم كانوا بجزيرة - أُقوَر - بين دجلة والفرات ، مجاورين لليونان ؛ ولا من بكر ، لمجاورتهم النبط والفرس [1] ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ؛ ولا عن أهل اليمن ، لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة ، صادفوهم قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .

وكان الرواة وعلماء اللغة ، يرحلون فى طلبها إلى البادية . ليأخذوها عن مصادرها مشافهة وسماعا ؛ وأقدم من فعل ذلك ، يونس بن حبيب الضبي ، المتوفى سنة ١٨٣ ، وخلف الأحمر ، المتوفى سنة ١٨٠ ، والخليل بن احمد ، المتوفى سنة ١٧٤ ، وأبو زيد الأنصارى ، المتوفى سنة ٢١٥ . وكانوا يطلبون جفاة الأعراب ، وأهل الطبائع المتوقحة ، ويأخذون عن القبائل التى بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت فى سرتها وكان الأعراب كذلك ، يطرءون على الحضر من البادية ، فيتلق الرواة ، وعلماء اللغة عنهم نوادر اللغة وغريبها ، ويحكمونهم فيما اختلفوا فيه ؛ وينزلون على أحكامهم؛

---

[١] نبط ، بفتحتين = جيل ينزلون البطائح بين العراقين ، والواحد نبطى ، سموا نبطا ، لأنهم استنبطوا ما يخرج من الأرض ، ولغتهم السريانية .

مكتبتنا العربية

ذلك لأن الأعرابى الفح ، لا ينطق بغير لحن قومه ، وان كان أفصح منه ، إلا إذا داخله الضعف : والروايات فى ذلك متعالمة مشهورة .

وكانت الحرب الجدلية اللغوية بين الكوفة والبصرة دائمة الاستعار ، يزيدها اشتعالا ، أن أهل الكوفة شيعة ، وأهل البصرة نواصب : وأجمع العلماء على أنه لا معول فى رواية اللغة على أهل الكوفة ، لتعلقهم بالشواذ ، ولوضعهم الأشعار ، من صنع حماد الراوية ، ومعه أبو البلاد : أما أهل البصرة ، فقالوا : إن منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة ، وهم : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والأصمعى ؛ وذكروا أئمة اللغة الذين امتازوا بحفظها ، فقالوا : إن الأصمعى يحفظ ثلث اللغة ، والخليل بن احمد يحفظ نصف اللغة ، وأبو زَيْد السدوسى ، تلميذ الخليل ، يحفظ الثلثين ، وأبو مالك بن كركرة الأعرابى يحفظ اللغة كلها ، وكان يحفظ الغريب والنوادر ، وهو المراد من اللغة .

أقول : إن هذا التحرى البالغ فى تدوين اللغة ، والتدقيق فى تحملها ونقلها ؛ وهذه اليقظة التى لا تنام ولا تغفل عن حياطتها وتنقيتها من الدخيل والمدسوس ، والموضوع إلى الملكات الطبيعية ، أو القريبة من الطبيعة ، التى كان يمتاز بها رواتها ؛ تعطى اللغة من القوة والصحة ، ما يقرب مما يعطيه التواتر : والقرآن هو الذى طرأ على اللغة ، فكانت الحاجة إلى التواتر فى نقله ألزم : ثم هو مع ذلك دين أو معجزة مقررة للدين ، بخلاف اللغة ، فإنها - وإن كانت وسيلة له ، واجبة بوجوبه - ثابتة متقررة ، لأنها لسان المتحدى والمتحدى : على أن فى تواتر القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين ، تواترا ضمنيا للغة ، يقطع كل جدل ، وكل شك فى صحتها ، ونهوض حجيتها .

فليشك المستشرقون وغير المستشرقين فى بعض الأشعار أو فى أكثر الأشعار وليتهموا بعض الرواة أو أكثر الرواة ؛ فإنهم جميعاً لن يأتونا بجديد لم يتنبه له رجال اللغة وعلماؤها ، وينبهوا غيرهم عليه ، ويقرروا بإزائه من ضروب الوقاية ، ما يصده وينفيه .

— ونحن معاشر الأزهريين — قد تواردنا على تقديم القرآن الكريم على

مكتبتنا العربية

كل نص سواه تشريفاً وتكريماً ؛ و من هذا الذى يقدم كلام المخلوق على كلام الخالق ؟ ! بيد أنى لا أتكلم الآن فى الكرامة والشرف ، وإنما أعرض للقرآن واللغة من ناحية دلالتهما على المنهج العربى : أو بعبارة مشهورة : من ناحية الاستشهاد على قواعد النحو ، وهل النصوص العربيـــة أقوى فى تأييدها ، أو النصوص القرآنية ؟ !

يقول المستشرقون : النصوص القرآنية أقوى ، لروايتها بالتواتر ، ورواية اللغة آحادا ، ولأن المسلمين فى العصر الإسلامى وما بعده ، قد منعوا رواية كل ما ناهض الدين من معارضة وغير معارضة ، وأنا أرد الجزء الأخير بأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت فى رثاء قتلى بدر .

هـــلا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى المادح

ونهى عن رواية قصيدة الأعشى فى مدح عامر بن الطفيل :

علقم ، ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر ؟

ومع ذلك رويت القصيدتان على وجههما .

بل لقد روى فى صحيح البخارى بيتاً عبد الله بن الزبعرى فى قتلى بدر .

وماذا بالقليب ، قليب بدر من الخيرات ، والنعم الجسام ؟ !

وماذا بالقليب ، قليب بدر من الشيزى تكلل بالسنام ؟ !

ويقول الأزهريون : النصوص القرآنية أقوى ، لشرف القرآن وجلاله ؛ ثم لوروده على أفصح اللغات العربية ؛ فهم يوافقون المستشرقين فى الحكم ، ويسخرون من مقدماته عندهم ، لما أسلفنا قريباً ، من أن النصوص العربية ليست مدخولة كلها ، وأشعارهم ليست منحولة كلها ؛ لأن تحرى الرواة ودقتهم ، وضعت لكل عقرب حجرها ، ورفعت لكل آية علمها ، ونصبت لكل درب صواه ، مما أقام منار الحق ، وهدى إلى قصد السبيل .

فأما الضعيف الذى هو أنا ، فإنى ـ مع استعدادى للرجوع إلى الحق ـ أرى أن النصوص اللغوية الصحيحة ، أقوى فى الاستشهاد على قواعد النحو ؛ والدليل على ذلك واضح ميسور ؛ فإن القرآن الكريم ، معجزة الرسول الكريم ، رسول

مكتبتنا العربية

الإسلام : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبرهانه الذى قام ويقوم على صدق رسالته ، بتحديه للعرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، مما قالوه ، ومما تزهلهم نحائزهم ، لأن يقولوه ، من منثور ومنظوم ؛ وهذا يوجب طبعاً ، أن يكون لهم كلام عرف وعرفت أسراره وخصائصه البلاغية ، وأساليبه فى الإفصاح والبيان ؛ حتى تكون الحجة أقوى ، والعجز أمامها أبلغ ؛ ولا يضيرنا فقدان بعض ذلك الكلام . قل أو كثر ؛ ما دام الخصم لا يستطيع أن يدعى أن جميع كلام العرب قد فقد ، ولم يبق إلا القرآن : هذا القليل أو الكثير الذى بقى من كلام العرب ، لا نزاع فى أنه الأصل الذى يقاس به القرآن ، حتى تصح الموازنة التى أوجبها التحدى ؛ وما كان أصلا ، يجب أن يكون الدليل المقدم .

ومما أستأنس به لذلك ، أن العلماء قد اتفقوا على أن القرآن فى أعلا درجات البلاغة ؛ ثم اختلفوا : أتتفاوت مراتبه فى البلاغة ، أم لا تتفاوت ؟

قال القاضى عياض : لا تتفاوت ، وكل كلمة فيه موصوفة بأنها فى الذروة العليا ، وإن كان بعض الناس أحس إحساساً من بعض .

وقال القشيرى وغيره : تتفاوت ، ولا ندعى أن كل ما فى القرآن على أرفع الدرجات فى الفصاحة .

وقال الجزرى : لو جاء القرآن كله بالأفصح . لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب ، من الجمع بين الأفصح والفصيح ؛ فلا تتم الحجة فى الإعجاز ، إذ يقال ـ مثلا ـ إنه قد جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه ؛ كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى : قد غلبتك بنظرى ، لأن الأعمى يقول له : إنما تتم لك الغلبة ، لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظرى ، أما إذا فقد أصل النظر ، فكيف تصح منى المعارضة ؟

* * *

وإن المستشرقين ومن شايعهم ـ وإن طعنوا فى صحة ما روى عن العرب من الخطب ؛ ومن أشعار اليمن وربيعة ـ يقبلون شعر مضر ، ويعرفونه بخصائص ومميزات لا تشتبه ، ولا تخفى على نقاد الأدب ورواته فى الجاهلية والإسلام :